مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

# التاريخ والديناميات الاجتماعية

## متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الثاني

2024

التاريخ والديناميات الاجتماعية
متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي
تنسيق :
محمد رابطة الدين و محمد الأكلع
الجزء الثاني
2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

# Histoire et dynamiques sociales

## Mélanges en l'honneur du professeur Hassan HAFIDI ALAOUI

Coordination :
Mohamed RABITATEDDINE et Mohamed ELAKLAA

Tome 2

2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources,
Mobilité et Attractivité - **LERMA**

MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

# التاريخ والديناميات الاجتماعية

## متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

## الجزء الثاني

2024

محفوظة جميع الحقوق
©Copyright

# الـتـاريـخ والـديناميات الاجتماعيـة

متنوعـات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علـوي

**تنسيـــــــــق:** محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

**مـنـشـــــورات:** مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية (LERMA)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة القاضي عياض، مراكش.

**الإيداع القانوني : 2024MO0741**

**ردمـــــــــــك : 978-9920-8894-0-7**

**الطبـعـة الأولى:** 2024

**الطباعة والإخراج الفني:** دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط

دار أبي رقراق للطباعة والنشر
*10* شارع العلويين رقم *3*، حسان – الرباط
الهاتف : *83 75 20 37 05* - الفاكس : *89 75 20 37 05*
*E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com*

# من تاريخ النُّظم والمؤسسات الدبلوماسية بالمغرب المريني خطة «العَلاَمة» من خلال الوثائق والمُراسلات السُّلطانية والنصوص التاريخية

**رشيد السلامي**[*]

اختلف مؤرخو الحضارة الإسلامية عامة والمغربية خاصة في تحديد المجال الذي تنتسب إليه خطة العلامة. فمن بين هؤلاء من اعتبرها مكونا أساسيا من مكونات الجهاز الدبلوماسي للدولة المغربية، لأنه لصيق بمفهوم «السيادة» خاصة في علاقات المغرب الخارجية، ومرتبط بموقعه الجيوسياسي الذي يفرض عليه أن يكون مسايرا ومواكبا للتحولات السياسية والتطورات المرتبطة بالجهاز الدبلوماسي بالغرب الأوروبي والشرق الإسلامي.[1]

وهنالك فريق ثان، يتناول موضوع العلامة السلطانية في إطار منظومة الوظائف والخطط السلطانية أو التراتيب الإدارية المغربية، باعتبارها واحدة من الابتكارات التي أبدعها العقل الإسلامي للاستجابة إلى حاجة الدولة في تنظيم إدارتها وتقنين علاقاتها الداخلية،[2] وهي بذلك رمز من رموز سلطتها ونفوذها.[3]

---

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش.

(1) انظر مثلا:

Levi-Provençal, « Un recueil de lettres officielles almohades, étude diplomatique et historique,» in: *Hespèris*, Tome 29 (1941): 1-19; Georges Séraphin Colin, «Diplomatique,» in: *Encyclopédie de l'islam*, nouvelle édition, Tome II (Leiden-Paris, 1977), 316-317;

ومحمد عبد الحفيظ خبطة الحسني، **العلامات السلطانية بين المشرق والمغرب من خلال كتاب مستودع العلامة لابن الأحمر، تأصيل تاريخي للعلاقات الدبلوماسية بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية** (فاس: منشورات المركز المغربي للدراسات التاريخية، ط. 1، 2018).

(2) انظر:

Levi-Provençal, «ALAMA», in: *Encyclopédie de l'islam,* Tome I (Leiden-Paris: nouvelle édition, 1975), 362-363; Georges Séraphin Colin, «Diwan,» in: *Encyclopédie de l'islam*, Tome II (Leiden-Paris, nouvelle édition, 1977), 341-342;

محمد المنوني، **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين** (الرباط: منشورات كلية الآداب، 1980)، 61-62.

(3) راجع: محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني، **الطغراء والأختام السلطانية وعلاقتها بإشكالية السيادة بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية، دراسة تاريخية-فنية وتشريح علمي-تعليمي**، فاس: مطبعة أمنية الأنصاري، ط. 1، 2013)؛

Brahim Jadla, «De l'usage du seau en terre d'islam: La «ALAMA» comme symbole du pouvoir dans le Maghreb médiéval,» in: *Le cérémonial dans les sphères politiques & religieuses à travers les âges*: *actes du colloque international*, Tunis (2017): 151-174.

في حين يرى فريق ثالث، أن العلامة من خطط الكتابة، وبهذا المعنى فهي لا تزيد عن كلمات وعبارات مُختصَرة، وهندسة لغوية مرسومة بحِرَفية مثلها مثل التوقيع والإنشاء والترسل. فهي إذن إبداع لغوي وأدبي، ثم فني وخطي يندرج ضمن أدوات صناعة الكاتب، أكثر منه ابتكار دبلوماسي أو إداري، وبالتالي فهي لا تعدو أن تكون مجرد وحدة من وحدات صناعة الإنشاء.[1]

انعكس هذا الاختلاف بين المؤرخين والباحثين في مقاربة موضوع خطة «العلامة السلطانية» على طبيعة المادة البيبليوغرافية وتنوعها، بين الوثيقة الرسمية الأصلية التي بدونها لا يمكن تدقيق معرفة وضبط تفاصيل وتطور العلامة في أشكالها وأنواعها وفي معانيها ودلالاتها،[2] وبين المصادر «المتخصصة» التي تهتم أكثر من غيرها بهذا الموضوع في إطار خاص يندرج ضمن خطة ديوان الإنشاء في الدولة الإسلامية،[3] ثم مصادر عامة، تاريخية كانت أو أدبية، لا تولي اهتماما

---

(1) انظر:
Henri de Castries, «Les signes de validation des chérifs Saadiens,» in: *Hespèris*, Tome I, 3ème trimestre (1921): 231-252.

(2) حرصنا على أن نشتغل في هذا البحث على أصول بعض الوثائق الرسمية التي تهم تاريخ المغرب في العصر الوسيط وبالضبط زمن حكم بني مرين، ونخص بالذكر مجموعة من المراسلات والمعاهدات المرينية الموجهة إلى ملوك أوروبا، بعضها محفوظ في أرشيف المكتبة الوطنية بباريس (B.N.P)، والأرشيف الوطني بباريس(A.N.P)، وأرشيف فيورونتينو بإيطاليا، وأغلبها موجود في أرشيف تاج أَرَگُون ببرشلونة بإسبانيا.

(3) يعود تأليف أبرز الكتابات في موضوع العلامة السلطانية وملحقاتها في الغرب الإسلامي إلى القرنين السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي والثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، لعل أقدمها من تحرير الكاتب أبي بكر بن الحسن بن محمد ابن خلدون جد المؤرخ المشهور وهو بعنوان: **أدب الكاتب**، اعتمد عليه ليفي بروفنسال في دراستين هما: Levi-Provençal, «Un recueil,»13-16 ; *Id.*, «le traité d'Adab al-Katib d'Abu Bakr ibn Khaldun,» in: *Arabica*, n°2, fascicule 3 (1955): 280-288 ;

ثم كتاب **عَلامة الكَرامَة في كَرامَة العلامة** للفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن محمد بن احمد التُّجاني، وهو الآن يعتبر في عداد المفقود ولا نعرف منه سوى اسمه، ألفه صاحبه في بداية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وترجم فيه للكُتاب الذين عملوا في خطة العلامة الكبرى والصغرى عند ملوك الدولة الحفصية بإفريقية؛ ثم مُسْتَودَع **العَلامَة ومُسْتبدِع العَلاَّمة**، للأديب والكاتب أبي الوليد إسماعيل ابن الأحمر، تحقيق محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت التطواني (تطوان: المطبعة المحمدية، 1964). أما المصنفات المشرقية في الموضوع فكانت أكثر أهمية وشهرة من قبيل ما ألفه كل من: ابن فضل الله العُمري، **التعريف بالمصطلح الشَّريف**، تحقيق محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988)؛ أبو العباس القَلْقَشَنْدي، **صُبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، 14جزءا، القاهرة: المطبعة الأميرية، 1913هـ-1922م)؛ شمس الدين محمد السحماوي، **الثغر الباسم في صناعة الكاتِب والكاتِم** ،دراسة وتحقيق أشرف محمد أنس، جزآن (القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، 2009)؛ ابن ناظر الجيش الحلَبي، **تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق رودولف ڤسلي (القاهرة: منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1987)؛ أبو الثناء الحلَبي، **حُسْن التوسل إلى صناعة الترسل** (بغداد: دار الرشيد، 1980). ويمكن الاستعانة كذلك ببعض المصادر المشرقية المتخصصة في أدبيات الترسل والإنشاء مثل: ابن الطوير القيسراني، **نُزهة المُقْلتين في أخبار الدولتين**، تحقيق أيمن فؤاد سيد (شتوتغارت: دار النشر فرانتس شتايز، 1992)؛ ابن الصَيْرَفي، **القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة** (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1990).

مباشرا بهذه الخطة ولكنها مع ذلك تقدم إشارات تكون أحيانا حاسمة في فهم بعض التغيرات والتحولات التي طرأت على العلامة في زمن ومكان معينين، الشيء الذي قد يفيد في رسم تطورها وأحيانا في تفسير بعض عناصر التبدل والاستمرارية في العلاقات الدبلوماسية للمغرب.[1]

في سياق هذا التصور، تشكلت طبيعة القراءة التي سوف نعتمدها في هذا البحث، وهي محاولة تقوم على إبراز أهمية المقاربة التقنية لمثل هذا النوع من الوثائق الرسمية ذات الطبيعة الخاصة. فالخلفية المنهجية التي تحكُمنا تنطلق من كون مضامين هذه النصوص، التي لا نختلف في درجة ثقلها التاريخي خاصة عندما يتعلق الأمر «بالعصر الوسيط المغربي،» لا يمكن فصلها عن بنيتها وتركيبتها التقنية من حيث سياق إنتاجها والدوافع والظروف المحيطة بكتابتها، وأيضا نوعية الفاعلين في صناعتها. ففي إطار هذه التقاطعات نسعى للكشف -قدر الإمكان -عن العلاقة الممكنة بين هذا النص الوثائقي وبين مكوناته التقنية، بمعنى كيف يمكن لهذه المكونات أن تسهم بشكل من الأشكال في تفسير بعض عناصر الموضوع الرئيسي للنص. فتِيمة «العلامة السلطانية» مثلا وما يندرج في معناها، ليست مجرد أداة أو تقنية من تقنيات «الكتابة الإنشائية» أو صيغة من صيغ التصديق على هذه الوثائق بصفتها الرسمية والمؤسساتية، بل لأنها –علاوة على ذلك- تضبط العلاقات السياسية والتجارية بين الدولة المغربية وبعض الدول الأوروبية ،إذ كثير من هذه الوثائق، وبالأخص المعاهدات والاتفاقيات، تتضمن فقرات يلتزم فيها المُوقعون من الطرفين التنصيص على كتابة أو وضع العلامة والخَتْم بخاتَم الشمع الأحمر باعتبارها من رموز السلطة المعنية وعنوانها، ولأنها أيضا إحدى الضمانات الأساسية التي تؤشر على مصداقية محتويات هذه المعاهدات وتؤكد على صحتها ،و تُلزم هذه الأطراف بتنفيذ بنودها و فصولها .ومن جهة أخرى، قد يكون لغياب هذه المكونات التقنية أو إحداها، أو لمجرد التشكيك في صحتها، ما يُقوض أساسات تلك المعاهدات و يعزز من أسباب فشلها و عدم تنفيذ الالتزامات الواردة فيها ،وهي مسألة يمكن أن تتطور إلى حد نشوب أزمة دبلوماسية في العلاقات الخارجية للمغرب خاصة مع الأوربيين كما حدث مثلا بين السلطان أبي الحسن المريني ونظيره بيدرو الرابع ملك مملكة أَرَگُون، وهو الموضوع الذي سيحظى هو الآخر بالاهتمام في هذا البحث.

---

(1) من أهم هذه المصادر نذكر: ابن خلدون، **المقدمة** (الجزء الأول من كتاب العبر) إخراج خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار (بيروت: دار الفكر، 2001)؛ **العبر** لنفس المؤلف، الجزء السادس والسابع (بيروت: دار الفكر، 2000)؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1988)؛ ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)؛ ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** (الرباط: دار المنصور، 1972)؛ مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979).

## • العَلامَة في اللغة والاصطلاح

العلامة في اللغة، السِّمَة والأَمارة والجمع علامات، وفي الاصطلاح الإداري والدبلوماسي، الشَّارة المُلوكية والشِّعار الملكي والتأْشيرة.

ويُقصد بالعلامة أيضا الخَتْم بخط اليد على المراسلات الرسمية والصُّكوك، والمَرجع في ذلك قول ابن خلدون في مقدمة تاريخه عندما ميز بين الختْم بالخاتَم المنقوش،[1] والختْم بخط يد السلطان: «وقد يكون هذا الخَتْم بالخَط آخر الكِتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحْميد أو تسبيح أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكِتاب مَن كان أو شيء من نعوته، يكون ذلك الخَط علامة على صحة الكِتاب ونُفوذه ويسمى ذلك في المُتعارف عَلامَةً ويسمى خَتْماً.»[2]

فالعلامة إذن، صورة اصطلاحية كان يُعبر عنها بكلمات مختارة قصيرة ومختصرة، ذات دلالات معينة دينية أو سياسية أو غير ذلك، يكتبها الخليفة أو السلطان بخط يده وكذلك صاحب العلامة، إما في صَدْر أو في نهاية مكتوب المعاهدات والاتفاقيات والمخاطبات والرسائل والأوامر والسِّجِلاَّت والمراسيم والظهائر الصادرة عنه، ويُخَلَّى موضع بياض مِقدارًا لكتابتها يسمى «بَيْت العلاَمة» سواء في أعلى الورقة بين البسملة والتصلية وبين مطلع الرسالة، أو في أسفلها بعد كتابة التاريخ.[3] ولا تَصدر هذه الوثائق الرسمية المختلفة ولا يتم اعتمادها أو تنفيذ القرارات والأحكام الواردة فيها إلا بعد التصديق عليها بكتابة هذه العلامة أو التأشيرة التي تؤكد صحتها ومصداقيتها، وتكسبها شرعيتها وقانونيتها، ولذلك عدَّها ابن الأحمر «شَارةً في الكُتُب كالشهادة الشرعية في العُقود.»[4] وكان كل خليفة أو سلطان أو أمير في البلاد الإسلامية يتخذ لنفسه كلمات خاصة تكون علامته التي تُميزه، وهذه العلامة السلطانية هي التي يقابلها -حسب هنري دوكاستر وغيره -ما يُعرف بالطُّغْرَاء عند أواخر ملوك المماليك في مصر، ثم عند

---

(1) الخاتَم كما سنرى بالتفصيل وشيكا، هو أيضا من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية وله ديوان يسمى ديوان الخاتم أو الختم يكون تابعا لديوان الإنشاء والرسائل، وهو إشارة إلى الكُتَّاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان، وقد يطلق أيضا على مكان جلوس هؤلاء الكتاب (ابن خلدون، **المقدمة**، 328). ويشير ابن خلدون وغيره من المؤرخين إلى أن من وجوه ومعاني الخاتم ما يطلق على الآلة التي تُجعل في الإصبع وتنقش به كلمات أو أشكال ويتم الختم به على الرسائل والصكوك. وهي خطة قديمة كانت معروفة للملوك قبل الإسلام وبعده، وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ اتخذ خاتمًا من فضة (وَرِق) ونقش فيه: «محمد رسول الله» وجعل الثلاث كلمات في ثلاثة أسطر يختم به في رسائله إلى ملوك عصره كالقيصر وغيره، ثم ختم به الخلفاء بعده أبو بكر وعمر وعثمان إلى أن ضاع في عهد هذا الخليفة الأخير. راجع في ذلك، ابن خلدون، **المقدمة**، 326؛ الغزالي، **التبر المسبوك في نصيحة الملوك** (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، 1987)، 289-290؛ القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 352-358.

(2) ابن خلدون، **المقدمة**، 327.

(3) انظر: ابن ناظر الجيش الحلبي، **تثقيف**، 10، 12، 21؛ القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 196.

(4) ابن الأحمر، **مستودع**، 20.

خلفاء الدولة العثمانية بالمشرق، وكذلك عند سلاطين المغرب من السعديين والعلويين.[1]

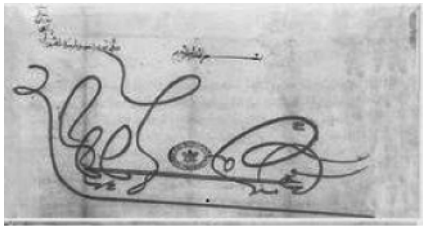

**شكل 1: نموذج من العلامة السلطانية عند ملوك السعديين أو ما يعرف أيضا بالطغراء.[2]**

## • في الفرق بين العلامة والتوقيع والخاتَم

والعلامة، بالمعنى الذي حددناه سابقا بناءً على المصادر الإسلامية المتخصصة في الموضوع، غير التوقيع كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين المشارقة والمغاربة،[3] لأن التوقيع اصطلاح آخر ووظيفة أخرى وإن اعتُبرت من ملحقات الكتابة وديوان الإنشاء.[4] فهو-أي التوقيع-

(1) وتعرف أيضا بالطُّغْرى والطُّغْرة مفرد طُغْراوات، وهي كلمة أعجمية فارسية أو تركية استعملها العرب وغيرهم في مكاتباتهم، ومعناها وصل كان يوضع في عصر المماليك في مناشير بين وصل الطُّرَّة ووصل البسملة، وترد فيه ألقاب السلطان في أسطر قصيرة ولها رَجل مُفرد لعملها وتحصيلها بالديوان. انظر: ياقوت الحَمَوي، **معجم الأدباء**، ج. 3، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 1993)، 1106-1107؛ ابن فضل الله العمري، **التعريف**، 117-118 و126؛ القلقشندي، **صبح**، ج. 13، 162 وما بعدها؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 3، 616. ويمكن الاطلاع على بعض النماذج من العلامة أو الطغراء عند ملوك السعديين في دراسة مفصلة وتشريحية مقارنة مع الطغراء العثمانية أنجزها الباحث والخطاط محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني، «العلامة الطغرائية بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية، دراسة تاريخية -فنية،» **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط، العدد 35، السنة 2015، 179-212؛ وله أيضا في نفس الموضوع: **العلامة المغربية والطغراء المشرقية من خلال الوثائق السلطانية** (فاس: منشورات المركز المغربي للدراسات التاريخية، ط. 1، 2018)؛ وفي أكثر من موضع من كتابه **العلامات السلطانية؛** امبارك بوعصب، «العناصر الفنية في خطوط الوثائق والمراسلات السلطانية بالمغرب،» **مجلة المعرفة للبحوث والدراسات التاريخية**، المجلد الثالث، العدد الرابع (2017):41- 47؛ و
De Castries, «Les signes,» 238 et suivi.

(2) هذا النموذج يمثل علامة/طغراء السلطان أحمد المنصور الذهبي، وقد وُضعت في أعلى مكتوب إحدى رسائله إلى ملكة بريطانيا، انظره مع نماذج أخرى عند كل من: عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب** ج. 8 (المحمدية: مطابع فضالة، 1988)، 302 -305 و315، 322؛
Henri de Castries**,** *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*, *Première série-Dynastie Saadienne*, Tome IV, (Pays-Bas) (Paris: Ernest Leroux, La Haye, 1913), 134 et autres.

(3) انظر مثلا بوعصب، **العناصر**، 39-40؛ أحمد عزاوي، «العلاقات بين المغرب والضفة الشمالية للبحر المتوسط الغربي من خلال وثائق عربية وسيطية،» ضمن كتاب:
***Le Maghreb,*** *Al Andalus et la Méditerranée Occidentale (VIII[e]-XIII[e] Siècle)* (Toulouse: éd. Philippe Sénac, 2007).

(4) يجب التنبيه أولا إلى أن هناك فرق دقيق بين التوقيع بالمعنى الذي تحدثنا عنه أعلاه كما جرى به العمل في الغرب الإسلامي وكما حدده ابن خلدون، وبين التوقيع الذي له دلالات مخالفة خاصة في مصر المملوكية. فالتوقيع عند المماليك هو نوع من أنواع الرسائل الديوانية السياسية التي تصدر عن السلطان لتعيين بعض

تَذييل يُكتب بخط الثُّلث أو ما يعرف «بقلم التوقيعات»[1] أسفل أو على ظهر الرسائل الواردة إلى ديوان الدولة، ويعتبر ردا وجوابا بكلمات من إنشاء السلطان تكون غاية في الإيجاز والاقتضاب، وتعقيبا أو تعليقا منه أيضا يكون في منتهى البلاغة يمليه على كاتبه الذي يُعرف «بكاتب التوقيع» أو يكتبه هو بخط يده.[2] ويختلف مضمون توقيعات الملوك والسلاطين باختلاف الموضوعات والقضايا التي تتعرض لها المراسلات، كما تختلف أشكال كتابتها ولون خطوطها. وقد انفرد ابن عذاري بالإشارة إلى أن عبارات «التواقيع» كانت تُكتب «بالمِداد الأحمر المعروف للخلفاء من بني عبد المؤمن.»[3]

ويستفاد من بعض إشارات ابن خلدون أن الفرق بين خطة العلامة وخطة التوقيع وخطة الإنشاء والسِّر فرق بيِّن وواضح، وأن لكل خطة من هذه الخطط وظيفة محددة وإن كانت كلها تندرج ضمن المراسيم السلطانية أو ضمن مؤسسة ديوان الإنشاء أو بشكل عام

---

خدامه في وظيفة من وظائف الدولة، وهي تشبه في تفاصيلها ما عرف عندهم «بالتقليد» مع بعض الاختلاف، فالتوقيع خاص بالتعيين في المناصب العادية والصغيرة، أما التقليد فهو خاص بالتعيين في المناصب العليا في جهاز الدولة المملوكية. حول مصطلح التوقيع وخصوصية خطته بالمقارنة مع خطط الكتابة الأخرى كالعلامة والخاتم وغيرها، وللوقوف أيضا على معاني التوقيع سواء في العصر المملوكي أو في الغرب الإسلامي يمكن الاستعانة بشروحات: أبي القاسم الكلاعي، **إحْكام صَنْعة الكلام**، تحقيق محمد رضوان الداية (بيروت: دار الثقافة، 1966)، 160- 166؛ العمري، **التعريف**، 120 و123؛ القلقشندي، **صبح** ،ج. 11، 114-127؛ ابن خلدون، **المقدمة**، 306-307؛ ابن سماك العاملي الأندلسي، **رَونق التَّحبير في حُكْم السياسة والتدبير**، تحقيق سليمان القرشي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004)، خاصة الباب الأربعون؛ ناجي معروف، **التوقيعات التدريسية** (بغداد: مطبعه العاني، 1963، 5-6؛ نجاة المريني، «وصايا وتوقيعات أندلسية من خلال مخطوط رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير لابن سماك العاملي،» **مجلة التاريخ العربي**، العدد 3، (السنة 1997): 236-241؛ محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني، **الخط الفاسي (المجوهر) ببلاد المغرب ودور مدينة فاس في تطوره**، ملتقى الشارقة للخط (الدورة العاشرة) (الشارقة: منشورات دائرة الثقافة، 2022)، 295-311 و374-376.

(1) سُمي «بقلم التوقيع» أو «قلم التوقيعات،» وهو من قلم الثُّلث، لأن الخلفاء والملوك كانت توقع به على ظهر المكاتبات الصادرة إليهم، القلقشندي، **صبح**، ج. 3، 104.

(2) يحدد ابن خلدون بعض قواعد وضوابط خطة التوقيع والمشتغل بها ومجالسها، ويَعدها من خطط الكتابة حيث «يَجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حُكمه وفَصْله ويُوقع على القِصَص المرفوعة إليه أَحْكَامُها والفَصل فيها مُتَلَقَّاة من السلطان بأَوْجَز لَفْظ وأَبْلَغه فإما أن تَصْدُر كذلك وإما أن يَحْذُوَ الكاتب على مثالها في سِجِل يكون بيد صاحب القِصة، ويحتاج المُوَقِّع إلى عَارِضَة من البلاغة يَستقيم بها تَوْقِيعه.» **المقدمة**، 306-307.

(3) يقصد هنا خلفاء الموحدين، ابن عذاري، **البيان، قسم الموحدين**، 329. وقد ذكر هذا المؤرخ توقيعا مطولا نسبيا نسبه لآخر خلفاء الموحدين الواثق بالله أبي دبوس كتبه بخط يده على خطاب له من إنشاء الفقيه القاضي أبي إسحاق بن القشاش. انظر نفس المصدر ونفس القسم، 466-468. ومن بين هذه التوقيعات لخلفاء الموحدين توقيع للخليفة أبي العلاء إدريس الملقب بالمأمون ذكره ابن الخطيب في **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج. 1، تحقيق محمد عبد الله عنان (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط. 2، 1973)، 416؛ ثم توقيع الخليفة الناصر بن يعقوب المنصور الذي يتميز عن باقي توقيعات بني عبد المؤمن باعتماده على تاريخ المراسلة كما جاء في ختام رسالة منه إلى كُمونة (جمهورية) بيزة الإيطالية بتاريخ 26 رجب 598هـ/21 أبريل 1202م وذلك كالآتي: «كُتب في التاريخ المذكور بحول الله،» انظر: خبطة الحسني، **الخط الفاسي**، 311.

ضمن «وظائف القَلم،» وفي هذا المعنى ذكر أن السلطان أبا عنان المريني خصَّ كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي مَدْيَن بخطة العلامة وولى ابن الحاج النُّمَيْري خطة الإنشاء والتوقيع. واختص السلطان أبو سالم المريني كاتبه عليا بن محمد بن مسعود بخطة العلامة وأسند للمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون خطة الإنشاء والتوقيع وكتابة السِّر في آن واحد، وكان قبل ذلك مكلفا بتدبير خطة الكتابة والتوقيع معا بين يدي السلطان أبي عنان.[1]

تتميز أغلب التوقيعات السلطانية التي نُسبت لبعض ملوك المغرب الأقصى في «العصر الوسيط» بكونها أجوبة قصيرة في كلماتها وهادفة في مدلولاتها، تخص قضية محددة يتم استفتاء السلطان فيها، وغالبا ما تكون ذات بعد سياسي أو دبلوماسي أو قضائي.[2] ومن أشهر هذه التوقيعات، التوقيع المنسوب للسلطان يوسف بن تاشفين المرابطي الذي خطه على ظهر رسالة ألفونسو السادس (Alfonso VI) ملك قشتالة حين توصله بها عشية معركة الزلاقة (479هـ/1086م) وهو يدعوه للمواجهة المباشرة، إذ أجابه بعبارة مختصرة ومُعبرة: «جوابُك يا أُذْفُنْش ما تَراه لا ما تَسمعه.»[3]

ثم هنالك توقيع آخر منسوب للخليفة الموحدي يعقوب المنصور كتبه على ظهر رسالة من ملك قشتالة ألفونسو الثامن (Alfonso VIII) قبيل معركة الأَرَك (595هـ/1199م)، ونصه: «قال الله العظيم: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، الجوابُ ما تَرى لا ما تَسمعُ.»[4]

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**، (وهو في ذيل الجزء السابع من كتاب **العبر**) (بيروت: دار الفكر، 2000)، 524، 525، 534، 539.

(2) انظر في ذلك ناجي معروف، **التوقيعات**، 5-6؛ علي لغزيوي، **أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري** (الرباط: مكتبة المعارف، 1987)، 462-463.

(3) مؤلف مجهول، **الحلل**، 43. وقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب نفس التوقيع مع بعض الإضافات: «من أمير المسلمين يوسف إلى أدفونش، أما بعد فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، والسلام على من اتبع الهدى،» **كتاب إعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، القسم الثالث (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط)، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1964)، 240. وتجدر الإشارة إلى أن الخلفاء العباسيين، وخاصة هارون الرشيد، كانوا يستعملون نفس هذه العبارات وبالحرف الواحد في توقيع مكاتباتهم إلى ملوك الروم، وقد أوردها القلقشندي في كتابه: **صبح**، ج. 6، 457. انظر أيضا مجموعة من التوقيعات السلطانية التي أنشأها بعض ملوك وأمراء المغرب الأقصى في العصر الوسيط ضمن المجموعة الوثائقية التي جمعها الباحث محمد ماهر حمادة، **الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية، 64هـ-897هـ/ 683م-1492م، دراسة ونصوص** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. 2، 1986)، 133-134،155، 157-158، 184-185،252.

(4) ابن أبي زرع، **الأنيس**، 221، وقد عرفت خطة التوقيعات في عهد السعديين والعلويين مسارا مختلفا من حيث الشكل والموضوع، ويمكن الوقوف على نماذج من ذلك من خلال توقيعات السلطان أحمد المنصور السعدي عند عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق عبد الكريم كريم (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية بالمغرب، 1972)، 299-300.

ويُلحق بالعلامة الخاتَم (Sceau) الذي هو أيضا من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية. ومن معاني الخاتم أنه يُطلق على الآلة التي تُجْعَل في الإِصْبع والذي إذا «نُقِشَت به كلمات أو أشكال ثم غُمِسَ في مَدَافٍ من الطِّين أو مِدَادٍ وَوُضِعَ على صَفْحِ القِرْطَاسِ بَقي أكثَرُ الكلماتِ في ذلك الصَّفْحِ، وكذلك إذا طُبِعَ به على جِسْمٍ لَيِّنٍ كالشَّمْعِ فإنه يَبقى نَقْشُ ذلك المَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فيه.»[1] (شكل 2)

ويكون لون هذا الشمع أحمرا تُمْهَر به المراسلات والمعاهدات والظهائر وغيرها من الوثائق الرسمية السلطانية حفاظا على سريتها وحماية لها من أي تزوير، وبذلك تكون العلامة السلطانية أو الختْم بالخاتَم بعد غَمْسِه في المِداد بمثابة صحة المكتوب ونفوذه.[2]

كما اعتبر القلقشندي بدوره أن الخاتَم أو الخَتْم معناه الطَّبْع، والمراد حسب رأيه «شَدُّ رأس الكِتاب والطَّبْعُ عليه بالخاتَم، حتى لا يَطَّلِعَ أحدٌ على ما في باطِنِه حتى يَفُضَّهُ المكتوبُ إليه،»[3] ويضيف أن العادة جرت في بلاد المشرق أيام الخلفاء على «أن يُختم بخاتَم الخليفة، بأن يُغْمَسَ في طين مُعَد لذلك أحمرَ الصبغ، ويختم به على طرفَيِ اللِّصاق، ليقوم مقام علامَة الخليفة.»[4] وأن هنالك طريقة أخرى للختم بالخاتم وهي، حسب القلقشندي دائما «أن يُخْزَم الكِتاب من وَسَطه بالأَشْفَار حتى تنفُذَ في بعض طَيَّات الكتاب ثم تخرج من وجه الورق أيضا، ويدخل فيه دَسْرَة [5] من الورَق كالسَّيْر[6] الصغير ويُقَطُّ طَرَف الدَّسْرة، ثم يُلْصَق على ذلك بشَمْع أحمر، ثم يُختم عليه بخاتم يَظهَرُ نقشُه فيه، ويسمى هذا النوع من الخَتْم الخَزْم – بالخاء والزاي المعجمتين- أخذًا من خَزْم البَعير[7]...ولعل هذه الطريقة من الخَتْم هي التي

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، 327.

(2) إلى جانب الشمع الأحمر استعمل ملوك وخلفاء العباسيين وغيرهم أنواعا أخرى للختم بمداد من عنبر ومِسْك أو طين أسود مخلوط بعنبر كما ذكر أبو الحسين هلال الصابئ المتوفى سنة 448هـ/1056م في كتابه: **رسوم دار الخلافة**، تحقيق ميخائيل عواد، دار الرائد العربي (بيروت: دار الرائد العربي، ط. 2، 1986)، 127. وانظر أيضا: القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 356-358؛ و
Mohamed Ouerfelli, «Le sceau de la paix. Le traité de 669/1270 entre Philippe III et al-Mustanṣir Al-Ḥafṣī,» in: *Annales Islamologique*, n°52 (2019): 333.

(3) القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 352.

(4) يقصد القلقشندي أن هذه الطريقة في الختم بالشمع الأحمر كانت بمثل قوة العلامة الخطية، وأنها كانت مستعملة منذ القديم في بلاد المشرق عامة وبلاد مصر خاصة، وظلت كذلك إلى عصر المؤلف وهو القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد؛ انظر القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 356.

(5) المراد بالدَّسْرَة الدِّسَارُ أي المسمار المُحدد الطرفين يضم به لوح إلى آخر أو الخيط والحبل من ليف تُشد به الألواح وغيرها؛ ابن منظور، **لسان العرب**، مادة دسر.

(6) السَّيْرُ وجمعه سُيُورٌ وأَسْيَار، وهو خيط من جلد ونحوه يستخدم لربط الأشياء مع بعضها ومن ذلك الرسائل عند طيها؛ ابن منظور، **لسان العرب**، مادة سير.

(7) جاء في لسان العرب أن الخَزْم والخِزَام جمع خِزَامَةٍ وهي حَلَقٌ من شَعَرٍ تُجعل في أحد جانِبَيْ مَنْخَرَيْ البَعِير، كانت بنو إسرائيل تَخْزِم أنوفها كنوع من أنواع التعذيب لها؛ ابن منظور، **لسان العرب**، مادة خَزَمَ.

كان عليها الحال حين أُحدِثَ الختمُ في صدر الإسلام... وعلى هذا الآن (القرن 14م) أهلُ المغرب والروم والفِرَنْج و مَن في معناهم.» [1] (شكل 2)

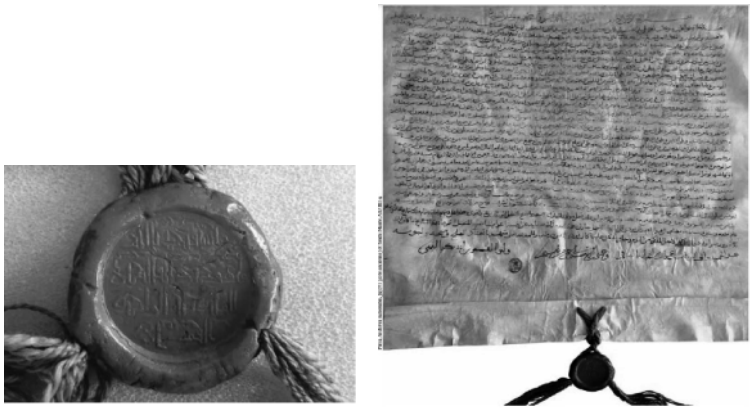

شكل2: صورة النص الأصلي لمعاهدة سلام بين الخليفة المستنصر الحفصي وملك فرنسا فيليب الثالث، يظهر في أسفلها شكل الختم على الشمع الأحمر الذي يستعمل بعد طي الورقة لتأمينها.[2] وفي الجانب إلى اليسار، صورة مكبرة للختم بالشمع الأحمر وقد نُقشت عليه عبارات دينية.[3]
وتظهر خيوط أو سُيُور أو أهْداب من الحرير باللونين الأحمر والأخضر التي تُستعمل عادة لشَدِّ وسَدِّ الرسائل وغيرها من الوثائق السلطانية بعد طيها وإلصاقها.[4]

(1) القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 357. وقد ورد عند ابن خلدون وصف لمثل هذه الطريقة مع بعض الاختلاف وسماها «بالحَزْم» بالحاء وليس بالخاء كما جاء عند القلقشندي وهو من مصادر هذا الأخير، والحزم عند ابن خلدون بمعنى الشَّد بالحِزام أو السَّداد، فيقول: «والحَزْم للكُتُب يكون إما بدَسِّ الوَرَق كما في عُرف كُتاب المغرب، وإما بإلْصاق رأس الصَّحيفة على ما تنْطوي عليه من الكِتاب كما في عُرف أهل الشرق، وقد يُجعل على مكان الدَّسِّ أو الإلْصاق علاَمةً يُؤْمَنُ معها مِن فَتْحِه والاطلاع على ما فيه، فأهل المغرب يجعلون على مكان الدَّسِّ قطعة من الشَّمْع ويَخْتِمُون عليها بخاتَمٍ نُقِشت فيه عَلاَمةٌ لذلك فيَرْتَسِمُ النَّقْش في الشَّمع، وكان في المشرق في الدول القديمة يُخْتَم على مكان اللَّصْق بخاتَمٍ منقوش أيضا قد غُمِسَ في مَدافٍ من الطين مُعَد لذلك صِبْغُهُ أَحْمَرُ فَيُرْتَسَمُ ذلك النقْشُ عليه ،وكان هذا الطِّين في الدولة العباسية يُعرف بطِين الخَتْمِ.» ابن خلدون، **المقدمة**، 328.

(2) تحمل هذه المعاهدة الحفصية الفرنسية الموقعة بتاريخ 669هـ/1270م نموذجا فريدا لشكل الشمع الأحمر وقد طبع عليه بالنقش (شكل 2)، وهو مخصص هنا كما يظهر لسد الورقة التي كتب عليها نص المعاهدة بعد طيها وإلصاقها تماما كما وصف ذلك ابن خلدون في الفقرات التي نقلناها عنه أعلاه، وهو ما سماه كذلك القلقشندي «بالخَزْم.» وتجدر الإشارة إلى أن النص الأصلي لهده الوثيقة لا يزال محفوظا مع طابع الشمع الأحمر في الأرشيف الوطني الفرنسي، وقد اعتنى بنشر ها وترجمتها من العربية ودراستها عددا من الدارسين والباحثين أجانب وتونسيين منذ القرن التاسع عشر، وقد أعاد قراءتها وتحقيقها الباحث التونسي محمد الورفلي في بحثه القيم المشار إليه قبل هذا:

Ouerfelli, «Le sceau,» 309-352.

(3) وهي: «واستفتحنا بالله / وهو خير الفاتحين / الملك لله الواحد / القهار،» نقشت هذه العبارات الأربع على أربعة أسطر أفقيا.

(4) خص الباحث محمد الورفلي هذا النموذج الفريد من الختم بالشمع الأحمر بتعليقات دقيقة حول شكله ومقاييسه ومحتوى نقوشه وأهمية ذلك بالنسبة لمصداقية وأمانة الاتفاقية المذكورة أعلاه، انظر:
Ouerfelli, «Le sceau,» 334-336 et 351.

يُفهم من كلام ابن خلدون والقلقشندي أن مصطلح الخاتَم أو الختْم نوعان، الخَتْم بالخط والخَتْم بالنَّقْش، وأن له معاني ودلالات مختلفة إذ نجده يُطلق على الآلة التي يُختم بها،[1] كما يطلق كذلك على نهاية المكتوب وتمامه،[2] ثم أخيرا يُقصد به السَّدَاد الذي تُسَد به الرسائل.[3] وفي مقابل ذلك نرى أن الختْم بالخط هو ما عُرف عند مغاربة العصر الوسيط بالعلامة السلطانية،[4] مع التأكيد على أنهم استعملوا أيضا الختْم بالنقش بعد غَمْسِه في مداد أحمر (Sceau de cire rouge)، أو يُطبع به على الشمع الأحمر لسَدِّ الرسائل بعد طَيِّهَا وإلْصَاقِها[5] (شكل 22). وقد وقف ماس لاَتْرِي (Mas-Latrie) على مجموعة من المراسلات والمعاهدات التي أبرمت بين المغرب وأوروبا في العصر الوسيط، وأفاد بأن الخاتم الذي هو الطابع استعمله ملوك المغرب إلى جانب العلامة السلطانية، ووظف لتحديد دلالات ذلك تسميات من قبيل:

«Le sceau,» «le cachet,» «la signature,» «le seing.»[6]

---

(1) حول مفهوم الخاتم ومجالات وشرعية استعمالاته عبر تاريخ الحضارة الإسلامية يراجع، ابن رجب الحنبلي (ت.795 هـ/1393م)، **كتاب أحكام الخواتيم وما يتعلق بها**، تصحيح وتعليق أبو الفداء عبد الله القاضي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985)، الصفحة 18 وما بعدها؛ وكذلك القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 352-358. وحول أنواع الأختام وأشكالها وأوزانها وأصل معادنها التي استعملها بعض الملوك في الغرب الإسلامي وخاصة الفاطميون والزيريون بإفريقية والمعروضة نماذج منها في بعض المتاحف التونسية ينظر:

Jadla, «De l'usage,» 153-157.

(2) وفي ذلك يقول ابن خلدون أن الختم بالخاتم بعد غَمْسِه في المِداد أو الطين ووضعه في الصَّفْح فتَنْتَقِش الكلمات فيه، ويكون هذا «من معنى النهاية والتمام، بمعنى صِحة ذلك المكتوب ونفوذه، كأن الكِتاب إنما يَتِم العمل به بهذه العَلاَمات، وهو من دونها مُلْغىً ليس بتَمامٍ.» **المقدمة**، 327.

(3) ابن خلدون، **المقدمة**، 328؛ القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 357.

(4) يرى الباحث محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني حسب استقراءه لبعض نصوص الرسائل المرينية أن العلامة كانت تنوب عن الختم في المغرب الوسيطي، وأن هناك تداخل بين هذين العنصرين خلال العصر المريني بشكل كبير، وهو رأي يحتاج في نظرنا إلى مزيد من التوضيح والتحقيق بناء على ما ذكرناه سابقا وما سنعمل على مناقشته لاحقا من هذه الدراسة. خبطة الحسني، **الخط الفاسي**، 333-334.

(5) ابن خلدون، **المقدمة**، 306 و328؛ القلقشندي، **صبح**، ج. 7، 39. انظر أيضا: أحمد عزاوي، «الرسائل السلطانية،» **معلمة المغرب**، ج. 13 (سلا: مطابع سلا، 2001)، 4335؛ محمد المغراوي، «العلامة السلطانية،» **معلمة المغرب**، ج. 18 (سلا: مطابع سلا، 2003)، 6126؛

James Allan, Dominique Sourdel, «Khātam,» in: *Encyclopédie de l'islam*, Tome IV, (Leiden-Paris: nouvelle édition, 1978), 1133-1137.

(6) راجع:

Mas-Latrie (Louis de), *Traites de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrional au moyen âge* (Paris: J. BAUR et DETAILLE, 1866) introduction: 281-282.

وللوقوف على أهمية دراسة موضوع الخاتم وعلم الأختام (sigillographie) في مقاربة دقيقة لجوانب من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي اقترح قراءة الدراسة التمهيدية التالية:

Sophie Gilotte et Annliese Nef, «L'apport de l'archéologie, de la numismatique et de la sigillographie à l'histoire de l'islamisation de l'occident musulman: en guise d'introduction,» in: *Islamisation et arabisation de l'occident musulman médiéval (VII^e-XII^e siècle),* Dominique Valérian (dir.), Collection Bibliothèque historique des pays d'Islam 2 (Paris: Éditions de la Sorbonne, 2011), 63-99.

وفي نفس السياق، عرفت بعض دول أوروبا هي الأخرى هذا النوع من العلامات الملوكية منذ القديم، وبأشكال مختلفة سواء كتبت بخط اليد أم بالخاتم المنقوش أو بالطابع.[1] لكن ما يثير الانتباه في هذا الموضوع أن العلامة السلطانية عند ملوك الإسلام أشير إليها في كثير من الدراسات الأجنبية بأسماء مختلفة أو استعملت اصطلاحات متعددة للدلالة عليها، تكون في غالب الأحيان غير دقيقة ولا تعبر عن المعنى الحقيقي للعلامة السلطانية في التقاليد الإدارية والنظم الإسلامية.

وفيما يلي، بعض هذه التسميات أو المرادفات المقابلة لعبارة العلامة كما وردت في بعض الدراسات الأجنبية التي تناولت هذا الموضوع[2]:

| | | |
|---|---|---|
| -Signe de validation | -Signature | -Visa |
| -Paraphe | -Souscription | -Devis |
| -Signature simple | -Seing manuel | -Monogramme |

واعتبارا لمُجمل هذه الحيثيات، نعتقد أن العلامة السلطانية في الدولة الإسلامية كانت لها دلالات عميقة واستعمالات دقيقة لا يمكن إدراكها وفهم سياقاتها إلا من خلال اعتماد مقاربات فنية،[3] ولغوية وسيميائية، تتقاطع مع تاريخ المؤسسات والنظم وعلوم مكملة أو مشاركة مثل علم النُّمِّيّات (Numismatique) وعلم الأَختام (Sigillographie)، وكذلك علوم

(1) عرفت أوربا عبر تاريخها الطويل صناعة الأختام باختلاف أنواعها وأشكالها وتعدد استعمالاتها منذ القديم، سواء عند الملوك في مكاتباتهم الدبلوماسية، أو البابوات في تعاملاتهم الكنسية، أو الموثقين والتجار في معاملاتهم التجارية. ولأخذ فكرة واضحة حول موضوع الأختام وأدوارها في التاريخ الأوربي، وبناء مقارنات بينها وبين ما راج في الغرب الإسلامي والحضارة الإسلامية عموما، نقترح الرجوع إلى دراسة موسعة وقيمة في هذا الباب للباحث المؤرخ والأكاديمي المتخصص في الأرشيف الفرنسي آرثر جيري:
Arhtur Giry, *Manuel de Diplomatique: diplômes et chartes- Chronologie technique- éléments critiques et parties constitutives de la teneur des chartes- les chancelleries- Les actes privés* (Paris: nouvelle édition, 1925), 591-657;

وانظر أيضا:
Béatrice Fraenkel, «La signature: du signe à l'acte,» in: *Sociétés & Représentations*, n° 25 (2008/1): 16.

(2) من بين هذه الدراسات نذكر:
De Castries, «Les signes,» 231-252; *Id.,* «Le protocole des lettres des sultans du Maroc,» in: *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 56e année, n°. 4 (1912): 286-296; Levi-Provençal: «Un recueil,» 13-16; *Id.*, «ALAMA»,362-363 ; Colin: «Diplomatique,» 316-317.

(3) من بين المحاولات المغربية التي اهتمت بدراسة الجانب الفني في الوثائق والعلامات السلطانية في تاريخ المغرب وخاصة في تاريخ الدولة العلوية يمكن مراجعة، بوعصب، **العناصر**، 31-59 و في مواضع مختلفة من كتاب خبطة الحسني، **الخط الفاسي**.

الشِّعارات (Blasons) والشَّارات (Insignes) والوثائق والمستندات [1] (Diplomatique).

## • صاحب العلامة

ويُعرف أيضا بكاتب العلامة، وهو الذي يكتب بخطه وبالنيابة عن السلطان علامته على المراسيم والرسائل والصكوك وغيرها. ومن ملحقات خطة العلامة السلطانية وركائزها **صاحب العلامة** لأنه ينضوي ضمن سلك كُتاب الإنشاء الذين اعتبرهم ابن الأحمر «أَلْسِنَة الملوك بكل أَوَان، ومَقاوِل الدول وصُدور كل ديوان.»[2] ويبدو أن مصطلح صاحب العلامة قد عرف هو الآخر تطورا معينا في المغرب الوسيط، تدرج من مدلول عام يحيل على ما يُعرف بكاتب الإنشاء إلى مدلول دقيق يحدد مهمة هذه الخطة في المُتكفل بكتابة العلامة فقط، وفي ذلك يقول ابن الأحمر: «وكان يُعبَّر عن كاتب الإنشاء بصاحب القلم الأعلى ثم صار هذا الوَسْم يُعبَّر به في زماننا هذا (أي القرن 14م) عن كاتب العلامة.»[3] ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن صاحب العلامة كان يعرف أيضا بألقاب أخرى «ككاتب العلامة» أو «مُتَوَلي العلامة.»[4] ومن غير المستبعد أن أهمية هذا المنصب وخطورته في الدولة المغربية الوسيطية كان يدفع بالمؤرخين إلى إطلاق نعوت وألقاب أخرى على صاحب العلامة التي قد تعني تعدد الوظائف والمهام داخل ديوان الإنشاء، وبالضبط داخل خطة العلامة نفسها، ومن ذلك «صاحب القلم الأعلى»

---

(1) من بين الدراسات الأجنبية التي عالجت موضوع العَلامة وملحقاتها في التاريخ الدبلوماسي والوثائقي الأوروبي على أساس مقاربات وتقاطعات معرفية متعددة نذكر على سبيل المثال:
Arhtur Giry, Manuel,Béatrice Fraenkel, *La signature: Genèse d'un signe*, (Paris: édition Gallimard, Collection Bibliothèque des histoires, 1992), 591-657 ; Claude Jeay, *Signature et pouvoir au Moyen Âge* (Paris: édition École nationale des chartes, 2015); Olivier Guyotjeannin, Jacques Pycke, Benoît-Michel Tock, *Diplomatique médiévale* (Paris: édition Brepols, 2006).

(2) ابن الأحمر، **مستودع**، 18، وانظر أيضا:
Khaneboubi Ahmed, *les premiers sultans mérinides (1269-1331), histoire politique et sociale*, édition L'Harmattan, Paris, 1987, 107-109.

(3) ابن الأحمر، **مستودع**، 25.

(4) أورد ابن مرزوق هذا اللقب، وهو يقصد به الكاتب الشهير أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي، هكذا: «مُتَولي نِيابة العلامة،» وقد أخطأ الباحث ديريك لاَتَام (Derek Latham) في ترجمة كلمة «نيابة» إلى «نقابة» لتصبح العبارة عنده هكذا: «مُتَوَلِّي نقابة العلامة» ليتغير المعنى كليا، وبالتالي فالعبارة المترجمة تولد عنها اسم «وظيفة «لم يرد لها ذكر على الإطلاق في أي مصدر من المصادر الوسيطية سواء المغربية أو الأندلسية ولا حتى المشرقية. انظر: ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981)، 374؛ وأيضا:
John Derek Latham, «Ibn Al-Ahmar's Kitab mustawda Al-Alama: Towards a commentary on the author's introduction,»
وهو بحث ورد ضمن كتاب: دراسات **عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس** (بيروت: الجامعة الأمريكية، 1981)، 320.

أو «كاتب السِّر»[1] التي تردفها المصادر المشرقية بعبارة صاحب العلامة، وهي عبارات/ وظائف غالبا ما تجتمع في شخص واحد كالكاتب الشهير أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي على سبيل المثال.[2] ولعل هذه الأهمية هي التي جعلت العلاَّمة محمد المنوني يُدرج صاحب العلامة ضمن وظائف ورجالات «السلطة العليا» التي كانت تساعد السلطان المريني في إدارة البلاد إلى جانب الوزير وصاحب الشرطة العليا وصاحب الأشغال.[3] وابن الأحمر نفسه تداول في كتابه أكثر من نعت أو وصف للقائمين على خطة العلامة في إطار مؤسسة ديوان الإنشاء لملوك المغرب والأندلس، منها: «صاحب العلامة،»[4] «كاتب العلامة،»[5] «صاحب القلم الأعلى،»[6] «رئيس الكتاب،»[7] «كاتب العلامة والإنشاء،»[8] «الكاتب صاحب القلم الأعلى،»[9] «كاتب الإنشاء،»[10] «خطة العلامة والرِّقاع»[11] ثم «المُسْتَكتب في خطة العلامة السرية.»[12] ومع ذلك فمن الصعب جدا أن نحدد طبيعة وخصوصية كل عبارة/وظيفة من هذه العبارات والتمييز فيها بين ما هو مجرد وصف مجازي وبين حقيقة الوظيفة، وهل اجتماعها في شخص واحد يعني أنها تمثل جميعا جهازا وظيفيا متكاملا ؟[13]

---

(1) غالبا ما يرد مصطلح «كاتب السر» في المصادر المغربية بغاية الإشارة إلى وظيفة محددة قائمة الذات، عكس المصادر المشرقية التي كثيرا ما تجمع بين هذه الوظيفة ووظيفة العلامة وكأنهما وظيفة واحدة. ومن أهم الكتاب المغاربة الذين اشتهروا بولاية هذه الخطة في العصر الموحدي أبو الفضل ابن محشرة، وفي العصر المريني عبد المهيمن الحضرمي وابن مرزوق الخطيب وابن الحاج النميري. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤرخ ابن خلدون سبق له أن عبر في رحلته عن الأهمية البالغة لمنصب كتابة السر في دول الغرب الإسلامي إلى درجة أنه كان يُمَني النفس بها ويحلم بتوليها مع وظيفة الحجابة إلى أن تم له ذلك ولو لفترة قصيرة عند السلطان أبي سالم المريني، يقول ابن خلدون معتزا بنفسه ومنتشيا بتقلده هذا المنصب: «واستعملَني (السلطان أبو سالم) في كتابة سره، والتَّرسيل عنه، والإنشاء لمُخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المُرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأَسْجاع، لضُعف انتحالها، وخَفَاء المعاني منها على أكثر الناس، بخلاف غير المرسل، فانفردتُ به يومئذ، وكان مُستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة.» ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 541.

(2) انظر حول هذا العالم الكبير في زمانه: الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق عادل نويهض (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1969)، 53؛ ابن مرزوق، **المسند**، 264 و374 و376؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك**، 93 و148-149؛ القلقشندي، **صبح**، ج. 5، 210؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 513 -514 و522 -523.

(3) المنوني، **ورقات**، 61.

(4) ابن الأحمر، **مستودع**، 21، 24، 25، 29.

(5) المصدر نفسه، 25، 29، 31، 33، 34.

(6) المصدر نفسه، 19، 25، 30.

(7) المصدر نفسه، 21، 66.

(8) المصدر نفسه، 48.

(9) المصدر نفسه، 25، 26، 28، 29 إلى آخر تراجمه.

(10) المصدر نفسه، 25.

(11) المصدر نفسه، 32، وحول المدلول العام لهذه الوظيفة وبالأخص «خطة الرقاع» يمكن الرجوع إلى دراسة خبطة الحسني، **الخط الفاسي**، 329.

(12) المرجع نفسه، 48.

(13) انظر: ابن مرزوق، **المسند**، 486.

في مقابل ذلك، نلاحظ أن بعضاً من أصحاب العلامة في المغرب الأقصى الوسيط، وبالأخص في العصر المريني، كانوا يمارسون وظائف إدارية أخرى أو حتى سياسية إلى جانب وظيفة صاحب العلامة، ومن ذلك مثلا: الكاتب أبو المكارم منديل بن محمد بن سعيد الكِنَاني الذي كان في نفس الوقت وزيرا وحاجبا وصاحب العلامة للسلطان يعقوب بن عبد الحق المريني،[1] وأبو محمد عبد الله بن أبي مَدْيَن الذي نُعت بالحاجب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى لأربعة من سلاطين بني مرين،[2] والفقيه الكاتب علي بن محمد بن أحمد بن مسعود الخُزاعي الذي شغل وظيفة صاحب القلم الأعلى للسلطان أبي سالم المريني وأيضا كاتبا للأشغال.[3] وقد نجد أيضا أن وظيفة العلامة يمكن أن يقوم بها أكثر من كاتب لسلطان واحد كما هو الشأن بالنسبة للسلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الذي كتب له العلامة ما يزيد عن ستة كُتاب،[4] وقد يكتبها شخص واحد لأكثر من سلطان بعينه كما حدث مع الكاتب أبي القاسم ابن رضوان النجاري الذي كتب العلامة لثمانية ملوك من بني مرين.[5] والأكثر من هذا وذاك، يمكن القول إن هناك بعض الأسر المخزنية مَن توارثت هذه الخطة بين أفرادها كأسرة الكِناني،[6] وأسرة بني أبي مَدْيَن،[7]

---

(1) ولذلك وصفه ابن الأحمر بذي الوزارتين لأنه إضافة إلى كتابة العلامة والحجابة والوزارة كان الكناني أيضا رسول السلطان في السفارة بين الملوك، **بيوتات فاس الكبرى** (الرباط: دار المنصور، 1972)، 57.

(2) ابن الأحمر، **مستودع**، 41.

(3) المصدر نفسه، 62-64.

(4) ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين** (الرباط: المطبعة الملكية، ط. 2، 1991)، 28.

(5) هو أبو القاسم ابن عبد الله ابن الفقيه القائد يوسف بن رضوان النجاري الخزرجي المالقي العالم الكاتب الشهير صاحب كتاب معروف في السياسة السلطانية ألفه للسلطان أبي سالم إبراهيم المريني بعنوان: **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق علي سامي النشار (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط. 1، 1984). انظر أيضا: ابن خلدون، **التعريف**، 514 و523 – 525؛ ابن الأحمر، **مستودع**، 51؛ ولنفس المؤلف، **نَثير الجُمان في شعر من نَظَمَني وإيَّاه الزمان** (أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن)، تحقيق محمد رضوان الداية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. 2، 1987)، 233-247.وقد نعته المقري ب «صاحب العلامة العلية والقلم الأعلى بالمغرب،» **نفح الطيب**، ج. 6، 107.

(6) تولى مجموعة من علماء هذه الأسرة المخزنية خطة العلامة لأوائل ملوك بني مرين ولبعض المتأخرين من دولتهم، من بين هؤلاء نذكر: محمد بن محمد بن سعيد الكناني ومنديل بن محمد بن سعيد الكناني وسعيد بن محمد بن محمد بن سعيد الكناني ومنديل بن محمد بن محمد بن منديل بن محمد الكناني؛ انظر: ابن الأحمر، **مستودع**، 40؛ Kheneboubi, *les premiers*,108.

(7) تعد هذه الأسرة من بين أشهر البيوتات الأمازيغية الفاسية، وهو بيت فقه وكتابة وحجابة وثروة، وهي كذلك أكثر الأسر المخزنية التي تصدى أفرادها للخدمة السلطانية وتولى نفر منهم خطة العلامة لملوك بني مرين من بداية دولتهم إلى نهايتها حتى أن ابن خلدون نص على أن كتابة العلامة كانت مقصورة على هذا البيت. وقد أفردت أغلب المصادر المغربية المرينية تراجم لهؤلاء كعبد الله بن أبي مدين ومحمد بن أبي مدين وأبو القاسم بن أبي مدين وأبو الفضل بن أبي مدين وغيرهم، انظر: ابن الأحمر في كتبه الثلاثة: **بيوتات**، 56-64؛ و**مستودع**، 41، 44 ،45، 47،46؛ و**نثير**، 255-268؛ ابن خلدون، **التعريف**، 523؛ و Kheneboubi, *les premiers* ,108.

وأسرة الحَضْرمي.[1] وقد اهتمت بعض المصادر المغربية، على رأسها كتاب «مستودع العلامة» لمؤلفه أبي الوليد إسماعيل ابن الأحمر، بذكر من تولى خطة العلامة لملوك بلاد المغرب عامة في «العصر الوسيط،» ونقترح هنا لائحة بأسماء أشهر أصحاب العلامة ممن تصدوا لهذه الخطة في عصر بني مرين، وهي لائحة تغري بقراءات متعددة[2]:

**جدول 1: أصحاب العلامة أو كُتابها في الدولة المرينية**

| كُتاب / أصحاب العلامة | المهام والوظائف المتعلقة بالعلامة وغيرها | سلاطين الدولة المرينية (فترة الحُكم) |
|---|---|---|
| أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد/سعد الكلبي المعروف بالكِناني | كاتب وحاجب وصاحب العلامة وسفير | أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (668-685هـ /1286-1269م) |
| أبو المكارم منديل بن محمد بن محمد بن سعيد الكِناني | وزير وحاجب وكاتب وصاحب العلامة | نفسه |
| أبو الطيب سعيد بن محمد بن محمد بن سعيد الكِناني | كاتب وصاحب العلامة | نفسه |
| محمد بن أحمد ابن الرَّبِيب الكَاسِي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | نفسه |
| أبو عبد الله محمد بن عمران العمراني الحسني | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو يوسف يعقوب (668-685هـ /1286-1269م) أبو يعقوب يوسف (685-706هـ /1286-1307م) |

(1) وهي أسرة بني عبد المُهيمن إحدى أعرق بيوتات سبتة ونسبهم في حضرموت، اشتهر أغلب أفرادها بانتحال العلم والتمرس بالكتابة والتدرج في خدمة ملوك بني مرين، ومن أعلم كتابها أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي أول من كتب العلامة من أسرته لبني مرين وكان ذلك سنة 718هـ/1318م في فترة حكم السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب، ثم بعده لابنه أبي الحسن. ثم كتبها حفيده عبد المهيمن بن أبي سعيد محمد للسلطان أبي العباس أحمد. راجع ابن الأحمر، **مستودع**، 50، 51؛ **نثير**، 223-226؛ ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 328-329؛ **التعريف**، 513 –514 و522-523؛ ابن مرزوق، **المسند**، 264 و374.

(2) اعتمدنا في توفير معطيات هذا الجدول على مجموعة من كتب التراجم والتاريخ وأيضا المصادر التي اهتمت بموضوع «العلامة السلطانية» في الغرب الإسلامي، وهي في أغلبها تعود إلى العصر المريني أي إلى المنتصف الثاني من القرن الثالث عشر ثم القرن الرابع عشر للميلاد. ويلاحظ في هذا الجدول أن أغلب المذكورين لا ينتسبون فقط إلى ديوان الإنشاء بل منهم من تولى مناصب مختلفة سياسية وقضائية ودينية إلى جانب خطة العلامة مما يعني أنها كانت في قلب النظم السياسية والدبلوماسية في العالم الإسلامي الوسيطي عامة.

| | | |
|---|---|---|
| عبد الله بن أبي مَدْيَن شعيب ابن أبي سعيد العثماني | وزير وحاجب وكاتب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو يوسف يعقوب (668-685هـ /1269-1286م)<br>أبو يعقوب يوسف (685-706هـ /1286-1307م)<br>أبو ثابت عامر (706-707هـ /1308-1307م)<br>أبو الربيع سليمان (707-710هـ /1308-1311م) |
| محمد بن محمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن ابن أبي الحسين يحيى المغيلي الفاسي | كاتب العلامة والإنشاء وصاحب القلم الأعلى | أبو يوسف يعقوب (668-685هـ /1269-1286م)<br>أبو يعقوب يوسف (685-706هـ /1286-1307م)<br>أبو ثابت عامر (706-707هـ /1308-1307م)<br>أبو الربيع سليمان (707-710هـ/1308-1311م) |
| عبد الرحمن بن الخزان التسولي | كاتب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو يوسف يعقوب (668-685هـ/ 1269-1286م)<br>أبو يعقوب يوسف (685-706هـ /1286-1307)<br>أبو ثابت عامر (706-707هـ /1308-1307م)<br>أبو الربيع سليمان (707-710هـ /1311-1308م) |
| احمد بن سعد بن إبراهيم بن جعفر التُّجَيبي المعروف بابن القَراق | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو يوسف يعقوب (668-685هـ/1269-1286م)<br>أبو سعيد عثمان الثاني (710-731هـ/1311-1331م) |
| أبو الحسن محمد بن عبد الله بن أبي مَدْيَن شعيب العثماني | كاتب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو يعقوب يوسف (685-706هـ/1286-1307م)<br>أبو سعيد عثمان الثاني (710-731هـ/1311-1331م) |
| أبو المكارم منديل بن محمد بن محمد بن سعيد الكِناني | وزير وحاجب وكاتب وصاحب العلامة | أبو يعقوب يوسف (685هـ-706هـ/1286-1307م)<br>أبو سعيد عثمان الثاني (710-731هـ/1311-1331م) |
| أبو القاسم محمد الحاج ابن أبي مَدْيَن شعيب العثماني | كاتب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو سعيد عثمان الثاني (710-731هـ/1311-1331م) |

| | | |
|---|---|---|
| محمد بن أبي مَدين شعيب العثماني المدعو بالقَصْرِي | كاتب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى | نفسه |
| أبو محمد صالح ابن حجاج اللخمي السبتي | كاتب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى | نفسه |
| أبو محمد عبد المُهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي (الجد) | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى وصاحب العلامة وإمام الكَتَبَة | أبو سعيد عثمان الثاني (710-731هـ /1311-1331م)<br>أبو الحسن علي (731-752هـ/1331-1351م) |
| أبو الفضل بن عبد الله ابن أبي مَدين شعيب العثماني | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو الحسن علي (731-752هـ/1331-1351م) |
| أبو المجد محمد بن محمد ابن أبي مَدين شعيب العثماني | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | نفسه |
| محمد بن أبي القاسم ابن أبي مَدين شعيب العثماني | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو عنان فارس (749-759هـ/1348- م 1358) |
| أبو عبد الله محمد بن محمد بن احمد بن علي بن أبي عمرو التَّمِيمي | كاتب وصاحب العلامة وحاجب وحسبان الجباية والعساكر | نفسه |
| أبو القاسم عبد الله ابن يوسف بن رضوان النجاري المالقي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى وصاحب العلامة العَلية | أبو عنان فارس (749-759هـ/1348-1358 م)<br>أبو بكر السعيد (759-760هـ/1358-1359 م)<br>أبو سالم إبراهيم (760-762هـ/1359-1361 م)<br>أبو عمر تاشفين (762-763هـ /1361 م)<br>أبو زيان محمد الأول (763-767هـ / 1361-1366 م)<br>أبو فارس (الأول)عبد العزيز (767-774هـ /1366-1372 م)<br>أبو زيان محمد الثاني (774-776هـ /1372-1374 م)<br>أبو العباس أحمد (دولته الأولى م (776-786هـ/1374- م 1384) |
| القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى ابن محمد الغساني البرجي | كاتب العلامة | أبو عنان فارس (749-759هـ /1348-1358 م)<br>أبو فارس (الأول)عبد العزيز (767-774هـ /1366- م 1372) |
| أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود الخُزاعي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى وصاحب الأشغال السلطانية | أبو سالم إبراهيم (760-762هـ/1359-1361 م) |

| | | |
|---|---|---|
| عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي | كاتب العلامة وصاحب التوقيع وكاتب السر والإنشاء وصاحب القلم الأعلى | نفسه |
| أبو الفضل عبد العزيز بن أبي جماعة التُّجَيبي | كاتب العلامة | أبو عبد الله محمد بن أبي سالم (762هـ/1361 م) |
| منديل بن محمد بن محمد بن منديل ابن محمد الكِناني | كاتب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو الفضل محمد بن أبي سالم (762هـ/1361 م)<br>أبو عمر تاشفين (762-763هـ/1361 م) |
| عبد المهيمن بن أبي سعيد بن عبد المُهيمن الحضرمي (الحفيد) | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو العباس احمد (دولته الأولى) (776-786هـ /1374-1384 م) |
| محمد بن حسن البِجائي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | نفسه |
| أبو يحيى محمد بن محمد بن أبي القاسم بن أبي مَدين شعيب العثماني | كاتب وصاحب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو العباس احمد (دولته الأولى) (776-786هـ/1374-1384 م)<br>أبو زيان محمد الثالث (788هـ/1386 م) |
| أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد بن احمد بن علي ابن أبي عمرو التَّمِيمي | حاجب وكاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو فارس (الثاني) موسى (786-788هـ /1386-1384 م) |
| محمد بن أبي الفضل محمد بن محمد بن محمد بن احمد بن علي ابن أبي عمرو التَّميمي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | نفسه |
| أبو القاسم محمد بن عبد الله الحُسيني السبتي | صاحب القلم الأعلى | أبو العباس احمد (دولته الثانية) (789-796هـ /1387-1393 م) |
| أبو زكريا يحيى بن أبي علي الحسين ابن أبي دلامة التسولي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | أبو العباس احمد (دولته الثانية) (789-796هـ /1387-1393 م)<br>أبو فارس (الأول) عبد العزيز (796-799هـ /1393-1396 م)<br>أبو عامر عبد الله المستنصر بالله (799-800هـ/ 1396-1398 م)<br>أبو سعيد عثمان الثالث (800-823هـ؟/1398- 1420 م ؟ ) |
| محمد بن أبي زكرياء يحيى بن أبي علي الحسين ابن أبي دلامة التسولي | كاتب العلامة | أبو سعيد عثمان الثالث (800-823هـ؟ /1398- م 1420؟) |
| غير مذكور | - | عبد الحق بن أبي سعيد (824؟ - 869هـ /1421؟ - 1465م) |

ويؤخذ عن ابن فضل الله العمري، أن من عادات المُكاتبة عن السلطان المريني أن كاتب العلامة كان يكتب في أعلى المراسيم بخطه أيضا إضافة إلى العلامة، وبعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: اسم السلطان ونسبه.[1] ويلاحظ أن بعض سلاطين المغرب الأقصى ربما اضطروا إلى تعيين أكثر من كاتب لكتابة علامتهم مما أدى إلى الوقوع في بعض المشاكل والملابسات انتهت أحيانا بعواقب مأساوية. فقد كانت العلامة السلطانية عند السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق ثم ابنه يوسف بعده لا تختص بكاتب واحد، بل وصل عددهم في عهد الأول إلى أكثر من ثمانية كتاب، وكان كل واحد من هؤلاء يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله، لأنهم كانوا كلهم ثُقاتاً أمناء عند سلطانهم.[2] وفي عهد أبي يعقوب يوسف حدث أن كتب كاتبه أحمد بن الملياني كتابا عن سلطانه إلى ابنه الأمير علي المعروف بابن زيحة نائبه على مراكش سنة 697هـ/1298م، يأمره فيه بأن يشرف بنفسه على قتل مَشْيَخَة المصامدة المحبوسين عنده، وكان غرض الكاتب الثأر والاقتصاص منهم، ووضَع على الكتاب العلامة التي تُنفذ بها تلك الأوامر، وختمه وبعث به مع البريد. ولم يكن من الأمير إلا أن يستجيب لما اعتقد أنها أوامر والده السلطان وقتل جميع المَشْيخة وهو لا يدري أنه كان ضحية لهذا الكتاب الذي لَبَّس عليه كاتب أبيه. ولما علم السلطان يوسف بتلك الدَّسِيسة والمكيدة ندم على فعلة كاتبه الملياني وخيانته له، فقام بتجريده من خطة العلامة وغيرها من المناصب التي كان يقوم عليها واقتصر من يومئذ في وضع علامته على من يختاره لها من صنائعه ويثق بأمانته، وجعلها لذلك العهد لعبد الله بن أبي مَدين.[3]

وقد تقترن أهمية خطة العلامة بقوة ونفوذ صاحبها الذي يكتبها أو بسطوة المكتوبة عنه أو باستبداد الحاجب أو الوزير، وفي هذا الصدد لاحظ ابن خلدون أن هذه الظاهرة كانت موجودة في الشرق الإسلامي بعد العباسيين وأيضا في الغرب الإسلامي أواخر الحفصيين. وهي ظاهرة كان لها حضور مماثل بالمغرب الأقصى أواخر حكم المرينيين خاصة بعد وفاة السلطان أبي عنان فارس عندما استفحل استبداد الوزراء والحُجاب أمام ضعف أغلب سلاطين

---

(1) انظر: ابن فضل الله العمري، **مسالك**، 149؛ المنوني، **ورقات**، 62.

(2) من ذلك مثلا إشارة أبي الوليد ابن الأحمر إلى أن في عهد السلطان المريني أبي يوسف يعقوب كان يكتب العلامة له ثلة ممن حضر من أصحابها، وقدَّم لها «عبد الله بن أبي مدين فكان يُعلم، وأبو الطيب الكناني يُعلم، وأبو عبد الله محمد بن الربيب الكتامي يُعلم، وأبو عبد الله محمد العمراني يُعلم، مَنْ حضر منهم عَلم،» ابن الأحمر، **نثير**، 256-257.

(3) قُتل نتيجة هذه المكيدة بعض مشيخة المصامدة المعتقلين بمراكش، وكان غرض ابن الملياني من وراء ذلك الثأر من هؤلاء بسبب شكاويهم للسلطان أبي يوسف يعقوب من هذا الأخير وما كان من عمه أبي علي الملياني في العبث بأشلاء الموحدين المدفونين بتينمل ونبش أجداثهم؛ انظر تفاصيل هذه الواقعة عند كل من: ابن أبي زرع، **الأنيس**، 385؛ ابن خلدون، **العبر**، ج7، 306؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج. 1، 284-286.

المرحلة، ولذلك نرى في عناصر ملاحظة ابن خلدون ما يجعلها تَصدق أيضا على آخر الدولة المرينية الذي امتد لما يزيد على قرن من الزمان، يقول: «ثم صارت السِّجِلات من بعدهم- أي العباسيين- تُصَدَّر باسم السلطان، ويضع الكاتب فيها علامَته أولا أو آخراً على حسب الاختيار في محلها وفي لفظِها، ثم قد تَنْزِل هذه الخِطَّة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المَراتِب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب مُلْغَاةَ الحُكْمِ بعلامة الرئيس عليه، يَستدِل بها فيكتب صُورَة علامته المعهودة والحُكم لعلامة ذلك الرئيس، كما وقع آخر الدولة الحفصية لَمَّا ارتفع شأن الحِجابة وصار أمرها إلى التَّفْويض ثم الاستبداد ،صار حُكم العلاَمة التي للكاتب مُلْغىً وصورتها ثابتة اتباعا لِمَا سلَف من أمرها، فصار الحاجِب يَرسِم للكاتب إمضاءَ كِتابه ذلك بخطٍّ يَصنَعُه ويَتخَير له من صِيَغ الإنْفاذ ما شاء فيَأْتَمِر الكاتب له ويضع العلامة المُعتادة، وقد يَختص السلطان لنفسه بوَضع ذلك إذا كان مُستبدا بأمره قائما على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته.»[1]

ويبدو من ناحية أخرى، أن بعض أصحاب العلامة لم يكن لهم ذلك الحضور القوي لدى السلطان خاصة عندما يكون هذا الأخير واضعا كل ثقته في بعض رجالاته دون غيرهم من داخل جهاز خطة ديوان الإنشاء. وفي هذا الصدد أورد ابن مرزوق الخطيب قصة كان هو المستهدف فيها، مفادها أنه عندما كان كاتب سِر السلطان المريني أبي الحسن أمره هذا الأخير بأن يَكتب أجوبة بخطه عن رسائل كانت تصله من رسوليه أبي العباس أحمد ابن يربوع وأبي محمد عبد النور إلى السلطان أبي الحجاج صاحب غرناطة بالأندلس، وكان أبو الحسن يُعَلِّمُ على تلك الأجوبة ويحتفظ ابن مرزوق بأصولها دون عِلم أحد حتى صاحب العلامة نفسه، وعندما فَطن هذا الأخير بالأمر تَغَيَّر من جهة ابن مرزوق وحَنَق عليه مما اضطر معه السلطان إلى التدخل ومُناصَرة كاتب سره ضدا على صاحب علامته.[2]

بالإضافة إلى ذلك فإن إصابة بعض الأمراء بعاهة جسدية خاصة في يديه تمنعهم من كتابة العلامة مما يمكِّن صاحب العلامة من التمتع بصلاحيات كبرى لم تكن له أصلا، وتزيد في استبداده وسطوته على مَخْدومِه، وهذا ما حصل بالفعل مع الأمير يحيى بن الناصر الموحدي عندما هاجم مراكش سنة 632هـ/1235م في إطار منازعة الخليفة الرشيد على الحكم. فبعد فرار هذا الأخير عن عاصمة ملكه تمكن الأمير يحيى من احتلالها، ثم اتخذ حاجبا له كافلا لأموره يَرجع إليه في جميع مصالحه وشؤون مملكته الصغيرة يسمى بِلال ويكنى بأبي حَمامة. وقد بلغ به استبداده أن صار يَكتب بخط مشرقي العلامة الموحدية المعلومة للخلفاء التي هي «والحمد

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، 306.
(2) ابن مرزوق، **المسند**، 486.

لله وحده» في الظهائر نيابة عن الأمير يحيى بن الناصر، غير أن أحدا لم يرتاب في أن الحاجب هو الذي كان يكتب العلامة بدلا من الأمير يحيى بسبب شلل ظاهر في يده اليمنى منعه من كتابة علامته بنفسه، بل كان بلال يكتب ويُعَلِّم على كل ما يصدر عن الأمير على حد قول ابن عذاري، وذلك «بِمِداد يميل إلى البَياض بقلم رقيق، وبين الحروف فُسْحة، فيُعيد يحيى على تلك الحروف بخط ضعيف وربما نَسي بعض تلك التواقيع فلا يمر عليها بشيء إلى أن اطلع الفتى -أبو حمامة- على هذا الأمر الشنيع فستَره وصار يَكتب التواقيع بالمِداد الأحمر المعروف للخلفاء.»[1]

## • حول بدايات استعمال العلامة في المغرب الأقصى الوسيط

استعملت العلامات السلطانية في المغرب الأقصى الوسيط على الأقل منذ العهد المرابطي في المراسلات الرسمية الصادرة عن ديوان الإنشاء، وهو أمر قد يحيل إلى أن بداية ظهور هذه التقاليد الإدارية «المخزنية» قد اقترن بظهور الدولة المرابطية كأول دولة مركزية مُوَّحِدة في تاريخ المغرب الأقصى، في وقت متقارب مع بروز مؤشرات أخرى لهذه المركزية مثل تسمية «المخزن» نفسها وأيضا تسمية «المغرب الأقصى.»[2] ومع ذلك فإن هذا الاستنتاج/الاحتمال لا ينفي أو يقطع مع إمكانية لجوء أمراء المغرب الأقصى قبل المرابطين إلى استعمال علامات مميزة لهم، خاصة إذا علمنا أن الدول المعاصرة لهم كبني أمية والحِجابة العامرية بالأندلس والفاطميين بأفريقية كانوا يستخدمون «علامات سلطانية» في مراسلاتهم الرسمية سواء كانت خطية أو بواسطة الخاتم المنقوش،[3] وكانوا يراسلون هؤلاء الأمراء مثل البرغواطيين وبني مِدْرار

---

(1) أورد ابن عذاري هذه القصة كاملة في كتابه **البيان، قسم الموحدين**، 329. وانظر أيضا:
Derek Latham, «Ibn Al-Ahmar's,» 318-319.

(2) لتوضيح هذا التصور أكثر يمكن الرجوع إلى بعض الأفكار التي ناقشها الأستاذ محمد القبلي حول مسألة بدايات ظهور بعض تجليات الدولة المركزية في المغرب الأقصى مع المرابطين بالتحديد، والتي شكلت فيما بعد ثوابت بلورت الصيغة المركزية للحكم بالمغرب كان من بين مؤشراتها تسميات «المغرب الأقصى» و«المخزن،» ونضيف إليها تشكيلة من النظم الإدارية والسياسية من بينها خطة «العلامة السلطانية» كرمز من رموز السلطنة والملك؛ محمد القبلي، «الدولة المغربية في العصر الوسيط» ضمن كتاب: **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، علائق وتفاعل**، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر ط. 1، 1997)، 74-75؛ وله أيضا «حول التبدل والاستمرارية بمغرب العصر الوسيط» ضمن كتابه: **جذور وامتدادات-الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط**، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2006)، 36-37.

(3) ابن خلدون، **المقدمة**، 328. أما فيما يتعلق ببدايات استعمال العلامة الخطية أو الخاتم في المكاتبات الرسمية والإدارية وكذلك الدبلوماسية في الغرب الإسلامي قبل المرابطين، فإن ابن حيان القرطبي، مؤرخ الأندلس الشهير، أورد إشارات مهمة في هذا الباب تتعلق بالأندلس مصدر كثير من هذه النظم في بر العدوة. تفيد هذه الإشارات بان الخليفة عبد الرحمن بن الحكم/عبد الرحمن الأوسط (206هـ-238هـ/821-852م) هو أول من قرر نقش خاتم الخلفاء الأكبر الأشهر من بين خلفاء بني مروان بالأندلس ونقش عليه العبارة الآتية: «عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ،» وقد كان من قبله لا يقتصرون في نقوشهم على عبارة موحدة ،فجرى النقش بما اختاره الخليفة عبد الرحمن لكل من ولي بعده من ولده، واستمروا عليه ولم يستبدل به أحد منهم إلى أن ذهبت دولتهم؛

والأدارسة وبني أبي العافِيَّة وبني خَزْرُون وبني زِيرِي بن عَطِيَّة وغيرهم.[1] فمن غير المستبعد أن يكون هؤلاء الأمراء قد تأثروا فيما تأثروا به من نُظُم مرتبطة بخطة الكتابة الديوانية ومنها العلامة، أو على الأقل قلدوهم بشكل من الأشكال في اتخاذ علامة خاصة بهم.[2]

وقد حاول مجموعة من الباحثين المهتمين برصد وتتبع تطور استعمالات العلامة في تاريخ الدولة الإسلامية عامة وتاريخ المغرب خاصة طرح نفس السؤال حول بدايات هذا الاستعمال، من منطلق أن اعتماد الخاتم/الطابع في التصديق على المراسلات والمعاهدات الرسمية كان سابقا على استعمال العلامة الخطية على الأقل في الغرب الإسلامي، وبالتالي لا نعرف بالضبط متى تم استبدال الخَتْم بالخاتم المنقوش بالخَتْم بخط اليد أي بالعلامة المكتوبة. وقد ذهب بعض هؤلاء الباحثين إلى الاعتقاد في أن بداية هذا الانتقال تحددت بوضوح بالغرب الإسلامي، وبناء على مؤشرات مصدرية وأرشيفية، في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد وبالضبط زمن حكم الموحدين، مع الإقرار بإمكانية حدوث ذلك قبل هذا العصر على الأقل خلال القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد خاصة بالأندلس ومنها

---

**المقتبس من أخبار بلد الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، السفر الثاني (الرياض: منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط. 1، 2003)، 293-294. انظر أيضا: ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، المجلد الثاني، تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد (تونس: دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 2013)، 94؛

Derek Latham, «Ibn Al-Ahmar's,» 325.

(1) كان بنو أمية بالأندلس سواء في عهد الخلافة أو في عهد الحجابة، يتبادلون مراسلات سياسية مع أغلب أمراء المغرب الأقصى المعاصرين لهم، وقد أشارت بعض المصادر المغربية والأندلسية إلى هذه المراسلات نصا أو اختصارا أو على شكل خبر، ومن المحتمل أنها كانت تتضمن علامات خاصة بالأمويين كما رأينا في الهامش قبل هذا أو بأمراء المغرب الأقصى، لكن أصول هذه المراسلات غير معروفة حتى الآن لتسمح لنا بالتأكد من الأمر. انظر على سبيل المثال كتاب **المُقتبس في أخبار بلد الأندلس** لابن حيان القرطبي المتوفى عام 469هـ/1077م، وهو منشور في أسفار متعددة من تحقيق مجموعة من المحققين مصريين وإسبان أمثال محمود علي مكي وعبد الرحمن علي الحجي والمستشرق الإسباني مليشور أنطونيا و بدرو شالميتا وفيديريكو كورينطي ومحمد صبح؛ ثم كتاب **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** لابن بسام الشنتريني المتوفى عام 552هـ وقد صدر في ثمانية أجزاء بتحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة،1997). وانظر أيضا مجموعة من الوثائق، مراسلات وظهائر التعيين وعقود البيعة، التي تتعلق إما بشؤون الأندلس الداخلية أو كانت متبادلة بين خلفاء وحجاب بني أمية بالأندلس وأمراء المغرب الأقصى والتي جمعها الباحث محمد ماهر حمادة، المنوه به سابقا، انطلاقا من مصادر أندلسية ومغربية، **الوثائق**، 127–232.

(2) هناك بعض المؤشرات المصدرية الأندلسية والمغربية التي توحي بصحة هذا الاستنتاج، وإن كان بعض الباحثين يعتبرون أن هذا الديوان لم يكن موجودا في المغرب إلا مع المرابطين لأسباب ترتبط في نظرهم بالوضع السياسي المضطرب الذي كان عليه المغرب الأقصى قبل المرابطين، وهو رأي يحتاج في نظرنا إلى بعض التأمل والتريث في انتظار ما يمكن أن يكشف عنه البحث في مستقبل الأيام من وثائق عن هذه الفترة من تاريخ المغرب الأقصى. انظر: محمد البركة، **الدولة المرابطية، ملامح نظام الكتابة الديوانية** (الدار البيضاء: منشورات إفريقيا الشرق، 2008)، 26 و35.

إلى بلاد المغرب، وهو ما سنحاول مناقشته في الفقرات الموالية.[1] لكن البحث عن إجابات لهذا السؤال لا يمكن أن تكون ذات جدوى إلا إذا وضعنا في الاعتبار أن استعمال العلامة المكتوبة والخاتم/الطابع معا قد شكلا الضمانة الموثوقة لصحة ومصداقية المكاتبات السلطانية خاصة في العلاقات الدبلوماسية الدولية زمن حكم بني مرين.

والجدير بالإشارة، أن ما يُعرف من أصول هذه المكاتبات السلطانية كالمراسلات والمعاهدات قليل جدا، بل ومنعدم بالنسبة لبعض الفترات من تاريخ دول المغرب الوسيط. وهذا ما يجعل معرفتنا ببدايات استعمال العلامة والظروف المحيطة بذلك، ثم أشكال تلك العلامات وأنواعها وما طرأ عليها من تبدل أو تطور، محدودة وغير دقيقة بالمقارنة مع الفترات الأخرى الحديثة والمعاصرة خاصة في زمن حكم السعديين والعلويين. وعلى النقيض من ذلك فإن ما نتوفر عليه من هذه الوثائق في صيغتها المُستنْسَخة يُعد بالمئات، وهي ترد على هذه الصورة إما مستقلة على شكل مجموعات وثائقية، أو متفرقة في متون مصادر تاريخية وأدبية. ويكون المَبعث والهدف من نسخها عن الأصول عند معظم ناقليها من المؤرخين والأدباء هو الإعجاب والانجذاب إلى شكلها الأدبي التَّرَسُّلِي وطريقة صياغة مفرداتها وقوة أسلوبها البلاغي وجمالية صورها ومحسناتها اللفظية والبديعية، أكثر من الاهتمام بمكوناتها الأخرى الفنية والتاريخية التي قد تفيد الباحث في رصد دلالاتها وتطورها.[2] ولذلك نجد الكثير من هذه الوثائق المُسْتَنْسَخة مثل الرسائل والظهائر التي تعود مثلا إلى المرابطين والموحدين والمرينيين قد خلَت من العلامة السلطانية، إما بسبب حذف صدورها التي تتضمن البسملة والحمدلة والتصلية حيث موضع العلامة خاصة عند الموحدين، أو بسبب الاستغناء عن ذكر الخواتم التي كانت تستوعب تواريخ كتابة تلك الوثائق وتنتهي بوضع العلامة كما هو معروف عند المرينيين والزِّيَّانِيين والنَّصْرِيين وربما حتى عند المرابطين قبلهم. في مقابل ذلك، فإن اتصالنا المباشر ببعض ما تبقى من وثائق مرينية أصلية على قلتها، سواء كانت مراسلات وظهائر أو معاهدات واتفاقيات وغيرها، خاصة تلك المحفوظة في أرشيفات بعض المكتبات العمومية الأوروبية كما ألمحنا سابقا، هي التي سمحت لنا بالكشف عن مختلف العلامات السلطانية

(1) انظر مثلا محاولة الباحث التونسي إبراهيم جدلة في التفاعل مع هذا الإشكال التأريخي لبداية استعمال ملوك بلاد المغرب الإسلامي للعلامة الخطية وذلك في دراسته القيمة المنوه بها سابقا:
Jadla, «De l'usage,» 157-160.

(2) نشير هنا إلى أن الأمر لا يتعلق فقط بحذف العبارات الدالة على العلامة السلطانية عند استنساخها من الأصول، بل أيضا يتم الاستغناء عن ذكر أسماء الأعلام والأماكن والأحداث والتواريخ وغير ذلك، مما جعل هذه الوثائق مجرد نصوص أدبية جامدة بدون روح أي بدون التاريخ وهو الأصل في وجودها. وقد نبه الأستاذ المقتدر محمد القبلي إلى بعض عناصر هذه الإشكالية في مقاربته الدقيقة للمستندات والوثائق التي اعتمدها في دراسته القيمة لثلاثية المجتمع والحكم والدين في نهاية العصر الوسيط المغربي؛ انظر محمد القبلي، **المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية «العصر الوسيط»** (الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، ط. 1، 2017)، 1-2. وانظر أيضا أحمد عزاوي، «الرسائل السلطانية،» **معلمة المغرب**، ج. 13، 4332.

وأشكالها وتفاصيلها من خلال نماذج واضحة ومؤكدة تيسر من جهة فَهم الإشارات الواردة عنها في المصادر والوثائق غير الأصلية، وتصحح من جهة أخرى بعض الاستنتاجات والأحكام غير الدقيقة لدى بعض الباحثين، إما بسبب غياب تلك الأصول أو بسبب عدم معاينة ما هو معروف منها حتى الآن أو لخطأ في هذه المعاينة نفسها.

وفي هذا الصدد، نشير إلى أن هذه الوثائق الرسمية الأصلية الخاصة بالدولة المرابطية قد ضاعت كلها، بينما تُسعفنا بعض المصادر التاريخية بمعلومات محدودة، إلا أنها تبقى فريدة فيما يتعلق بالتعريف بالعلامة المرابطية.[1] ولا يختلف حظ الدولة الموحدية كثيرا عن حظ سابقتها، فهي أيضا لم يتم الكشف حتى الآن إلا عن النزر القليلمن أصول وثائقها، منها - حسب ما وقفنا عليه - رسالة من الخليفة محمد الناصر أرسلها إلى كُمونة بيزة سنة 598هـ/1202م،[2] ورسالة ثانية بعث بها الخليفة عمر المرتضى إلى البابا إينُوصَانْتْ الرابع (Innocent IV) سنة 648هـ/1250م بقيت محفوظة بأرشيف الفاتيكان بروما، واشتغل عليها بعض الباحثين الأجانب ونشر نصها وصورتها الأصلية في مجلة هسبيريس سنة 1926،[3] ثم معاهدة سلم وتجارة عُقدت بين الخليفة يعقوب المنصور وكُمُونَة بيزة (Comune di Pisa) الإيطالية سنة 582هـ/1186م، وقد ظلت هي الأخرى محفوظة في أرشيف مدينة بيزة إلى أن نُشر نصها منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ثم صورتها الأصلية في السنوات الأخيرة.[4]

ويبدو أن حظ دول الغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط أوفر من باقي دول الفترات السابقة من حيث ارتفاع عدد وثائقها الرسمية الأصلية بشكل يسمح للباحث في هذا الموضوع

---

(1) محمد البركة، **الدولة**، 88؛ المغراوي، «العلامة السلطانية،» **معلمة المغرب**، ج. 18، 6126؛ ماهر حمادة، **الوثائق**، 255-328.

(2) النص الأصلي لهذه الرسالة محفوظ في أرشيف بيزة بإيطاليا وقد نشر صورة لجزء منها الباحث خبطة الحسني، **الخط الفاسي**، 311.

(3) انظر:
Eugene Tisserant and Gaston Wiet, «Une lettre de l'almohade Murtada au pape Innocent IV,» in *: Hespéris*, tome VI (1926): 27-53.

(4) وبالضبط في السجل الخاص بالوثائق الدبلوماسية المكتوبة باللغة العربية في أرشيف كُمُونَة بيزة:
(Pisa, Archivio di Stato. Diplomatico cartaceo)وقد نشر نصها العربي واللاتيني ميشيل أماري في مجموعة تضم نصوص وثائقية عربية عديدة:
Michele Amari, *I Diplomi Arabi del Regio Archivio Fiorentino: Testo Originale Con La Traduzione Letterale E Illustrazioni*, Firenze, Le Monnier, 1863-1867, vol. I, document, n°5, 17-22.

ثم قام الباحث التونسي الورفلي بنشر صورة نصها الأصلي ضمن مقاله:
Mohamed Ouerfelli, «Les premiers contacts diplomatiques entre l'Ifriqiya et la commune de Pise au XIIe siècle,» in: *De la guerre à la paix en Méditerranée médiévale, Acteurs, propagande, défense et diplomatie*, sous la direction de Elisabeth Malamut et Mohamed Oouerfelli (Aix-Marseille: Collection LE TEMPS DE L'HISTOIRE, édition Presses Universitaires de Provence, 2021), 223.

بالخروج بتصورات واضحة عن طبيعة وشكل العلامة عند ملوك الدولة المرينية وكذلك الدولة الحفصية والزيانية والنَّصْرِية. ويرجع الفضل في ذلك إلى أن العشرات من هذه الأصول لا تزال محفوظة حتى اليوم في أرشيفات بعض الدول الأوروبية التي كانت لها علاقات سياسية وتجارية ودبلوماسية مع تلك الدول من بينها المغرب المريني، ومن أهمها أرشيف مملكة/ تاج أرَگُون (Archivo de la Corona de Aragón) ببرشلونة الكَطَلانية الإسبانية خاصة في قسمه المعروف باسم «الرسائل العربية» (Cartas Árabes)،[1] وأرشيف المكتبة الوطنية بباريس (B.N.P)، وكذلك الأرشيف الوطني بباريس (A.N.P) بفرنسا،[2] ثم الأرشيف الملكي بفْيُورِنْتِينُو (Archivio Fiorentino) بايطاليا.[3]

(1) كل هذه الوثائق وغيرها التي كانت ضمن محتويات الأرشيف الإسباني والفرنسي والإيطالي سبق وأن وقفنا على الكثير منها عندما كنا نعد مادة رسالتنا الجامعية بتأطير من أستاذنا الجليل المرحوم سيدي محمد زنيبر، وهي الرسالة الجامعية التي تشرفنا بمناقشتها سنة 1989 بإشراف كريم من المرحوم العلامة سيدي محمد المنوني والأستاذ المؤرخ سيدي أحمد التوفيق وحظينا بنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وكان موضوعها: **وثائق مرينية، دراسة وتحقيق**. وقد سبق لباحثين إسبان أن نشروا مجموعة من هذه الوثائق المرينية إلى جانب وثائق أخرى من نفس الأرشيف، أي أرشيف تاج أرَگون، تتعلق بالعلاقات السياسية والتجارية بين مملكة أرَگون من جهة وبين ملوك بني نصر بغرناطة وملوك بني عبد الواد بتلمسان وملوك الحفصيين بإفريقية وملوك مصر من المماليك من جهة ثانية. انظر في ذلك:
Agustín Alarcón y Santón, Maximiliano y Ramón García de Linares, *Los documentos árabes diplomáticos del Archivo de la corona de Aragón*, vol. 1 (Madrid: Publicaciones de las Escuelas de Estudios Árabes de Madrid y Granada, Imprenta de Estanislao Maestre ,editados y traducidos, Série C, 1940).

وقد أعاد نشر وثائق هذا المجموع الخاصة بعلاقات ملوك الغرب الإسلامي وملوك الضفة الشمالية من غرب البحر المتوسط وقام بدراستها الباحث أحمد عزاوي في كتابه الموسوم بـ: **الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8 هـ/13 و14م.**

كما ننبه إلى أن الصور الرقمية لأصول الرسائل والمعاهدات المرينية الواردة في هذا المجموع والتي تخللت صفحات هذا البحث استخرجناها من الموقع الإلكتروني الخاص بأرشيف تاج أرَگون، ولذلك سنحيل عليه عند الحاجة بهذا الاختصار:

ACA Cartas árabes، أما عنوانه الكامل فهو كالتالي:
Archivo de la Corona de Aragón ACA, (Barcelona, España), Colecciones, Cartas árabes, (Portal de Archivos Españoles -PARES -).

(2) أما فيما يتعلق بوثائق الأرشيفات الفرنسية المشار إليها فقد كانت مثار اهتمام مجموعة من الباحثين الفرنسيين وغيرهم وتصدوا لها بالنشر والدراسة من قبيل:
Antoine-Isaac Silvestre de Sacy, «Mémoire sur une correspondance de l'Empereur de Maroc Yakoub, fils d'Abd-alhakk, avec Philippe-le-Hardi, conservée dans les Archives du Royaume de France,» in: *mémoires de l'académie royale des inscriptions et belles –lettres*, nouvelle série, tome 9 (1826): 478-506.

(3) من أهم المستعربين الذين عملوا على نشر مجموعة هامة من الوثائق العربية المحفوظة في هذا الأرشيف والتي تهم العلاقات الإيطالية مع دول شمال إفريقيا في العصر الوسيط وخاصة مع الموحدين والمرينيين وكذلك الحفصيين ومماليك مصر، ميشيل أماري ضمن مجموعته الوثائقية النفيسة المشار إليها سابقا:
Amari, I Diplomi...

في مقابل ذلك، تعتبر فترة حكم السعديين والعلويين متميزة من حيث توفرها -عكس العصر الوسيط -على وثائق رسمية أصلية تمكن الباحثين من معرفة دقيقة للعلامات السلطانية أو الطغراء التي احتوتها مراسلات الدولتين المغربيتين على الصعيد الداخلي ومع الدول الأجنبية. ويلاحظ في هذا الاتجاه أن تلك العلامات اتخذت أشكالا مختلفة لتتحول تدريجيا من العلامة الخَطية (Paraphe/Seing manuel) كما كان عليه الأمر عند ملوك المغرب في العصر الوسيط إلى علامة تتشكل من طابع مرسوم بمِداد (Timbre humide) ويُكتب داخله اسم السلطان وبعض العبارات الدينية والسياسية.[1]

وقد استعمل ملوك الغرب الإسلامي عامة والمغرب الأقصى خاصة علامات متنوعة من حيث الشكل والمضمون، أو من حيث الطول والقِصر، وأيضا من حيث موضع كتابتها في صدر المكتوب أو في نهايته، أو في أعلى الرسائل أو أسفلها. ويمكن التمييز بين هذه العلامات وتوضيح عناصر الاختلاف والتنوع فيها من حيث ألفاظها، إما بناءً على اشتقاقات سواء من ألقاب وأسماء الملوك، أو من خلال عبارات «الحَمدَلة» و «التَّوَكل» و«التاريخ» و«التصحيح» و«الشكر» إلى غير ذلك من العبارات والنصوص ذات المعاني والدلالات الخاصة. وقد أشار ابن الأحمر في مستودعه إلى هذا الاختلاف حيث يقول: «وقد اشتَقَّ بعضهم (أي الملوك والسلاطين) لفظ العلامة مُجانسا للقبه... ومنهم من يَكتب علامته بخلاف اشتقاق لقبه.»[2]

تُكتب العلامة عادة عند أغلب ملوك الغرب الإسلامي بخط يد السلطان أو بخط يد صاحب العلامة بواسطة القَلم الغَليظ أو ما يعرف أيضا عند الخطاطين بالقلم الجَليل[3]،

---

(1) من بين النماذج على ذلك صورة عن الأصل لرسائل سعدية يظهر فيها الخاتم في صدور بعض الرسائل والاتفاقيات وداخله اسم السلطان وبعض العبارات الدينية والسياسية. انظر مثلا:

Henri de Castries, *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*, Première série-Dynastie Saadienne, Tome I, Première Partie (France) (Paris: Ernest Leroux, 1905), 8-9,170-173,178-181; *Id*., «Les signes,» 231-252; *Id*., «Le protocole,» 288-290; Levi-Provençal, «Un recueil,» 19; Colin, «Alama,» 316; Jadla, «De l'usage,» 174.

(2) ابن الأحمر، **مستودع**، 21-25؛ وانظر أيضا، خبطة الحسني، **العلامة الطغرائية**، 180.

(3) أي غليظ القَطَة كما يذكر ابن الأحمر، والمقصود بذلك خط غليظ، **مستودع**، 20. والقَطَة من القَطُّ أي القَطْع ونقول قَطَّ القلم إذا قُطع طرفه وهُيئ للكتابة بعد البَرْي، والمَقَطُّ بفتح الميم ما قُطَّ من رأسه. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يراجع، أبو إسحاق إبراهيم الشَّرِيشِي المعروف بالبونسي، **كنز الكتاب ومنتخب الآداب**، تحقيق ودراسة حياة قارة، ج1 (أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2004)، 164-165. انظر أيضا محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني، «الخط المجوهر والخط الديواني بين الاستدقاق والتجليل، دراسة تاريخية-فنية،» **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط، العدد 34 (2014): 241-242؛ وحول تعدد استعمالات «التغليظ» أو «التجليل» في الخط الفاسي المجوهر الذي تكتب به كثير من الوثائق السلطانية بالمغرب ينظر لنفس المؤلف الأخير، **الخط الفاسي**، 389-391.

ومِداد خاص بهذا القلم يسمى «مِداد العَلاَمة،» وقد قال في وصفه الكاتب والأديب ابن أبي الخصال: «المُستَحسن أن يكون أَسْوَدَ بَرَّاقًا تَعلوهُ حُمْرَةٌ، حَسَنَ البَصِيصِ، قليلَ التَّعقيدِ، فإنَّه يُنَشِّطُ للكَتْبِ ويُعْملُ إِرْسال اليد ويُساعد على سُرعة القلَم.»[1] وتُكتب هذه العلاَمة في موضع يُخَصص لذلك يسمى عند أهل الصنعة «بَيْت العلاَمة» كما رأينا سابقا، وتوضع إما في مطلع الرسالة أو صدرها بعد البسملة أي في أعلى الورقة، أو في آخرها بعد تأريخ كتابة الرسالة مباشرة. أما فيما يتعلق بنوع الخط الذي كانت تُكتب به العلامة فقد لاحظ العلامة محمد بن شريفة وجود خلاف في نوع خط هذه العلامة بين «القلم المُسْنَد» و«خط الثُّلُث» و«خط الثُلث المشرقي.»[2] إلا أن القلقشندي سبق له أن وضح في صُبْحِه أن ملوك المغرب في العصر المريني كانوا يَكتبون علاماتهم في آخر كُتبهم بقلم الثُّلُث وفيه نوعان، قلم الثُّلث الثَّقيل، أي الغليظ، وهو المعني هنا، وقلم الثُّلث الخفيف، وهو الذي تكتب به نصوص الرسائل.[3]

## • العلامة السلطانية عند ملوك بني مرين

تعتبر العلامة السلطانية المرينية، من حيث شكلها ومحتوى كلماتها ومَوضِع كتابتها، صيغة مغايرة تماما لما عُرف عند أغلبية ملوك الغرب الإسلامي وبالذات عند خلفاء الموحدين. وهو اختلاف قد لا نجد له تفسيراً مقبولا إلا إذا تم إدراجه في إطار حرص ملوك بني مرين -منذ بداية حكمهم-على إبعاد أو على الأقل التخفيف من تأثيرات النموذج الحضاري الموحدي، خاصة على مستوى مجموعة من التقاليد الإدارية والتنظيمية، على رأسها مؤسسة ديوان الإنشاء أو خطة الكتابة بشكل عام وخطة العلامة بشكل خاص. ولتحقيق هذه الغاية اجتهدوا في ابتكار علامة سلطانية فريدة تكون غير مسبوقة ولم يستعملها أحد من الملوك

---

(1) انظر وصفا دقيقا لطريقة وتركيب المواد الداخلة في صناعة هذا النوع من المداد المخصص لكتابة العلامة عند سلاطين الغرب الإسلامي: أبو بكر محمد بن محمد القللوسي الأندلسي، **تُحف الخواص في طُرف الخواص**، (في صنعة الأَمِدَّة والأصباغ والأدْهان)، تحقيق حسام أحمد مختار العبادي (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2007)، 25.

(2) استنتج محمد بن شريفة هذا الاختلاف بين الخطوط الثلاثة التي تكتب بها العلامة السلطانية عند ملوك المغرب الأقصى من خلال مقابلته لوجهة نظر كل من ابن عبد ربه الحفيد وابن الوكيل صاحب مختصر نفح الطيب، وذلك في دراسته: «نظرة حول الخط الأندلسي،» ضمن كتاب **المخطوط العربي وعلم المخطوطات**، تنسيق أحمد شوقي بينبين (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1994)، 82. ولأخذ فكرة واضحة عن أهمية الخط المغربي المُجوهر في كتابة الرسائل السلطانية وكذلك العلامة أقترح مراجعة الدراسات المتخصصة الآتية، خبطة الحسني، **الخط المُجوهر**، 242-243؛ وله أيضا: **الخط الفاسي**، 312-315 ومواضع أخرى من هذا الكتاب؛ بوعصب، **العناصر**، 36-37 و49-52؛ وله أيضا، **المراسلات والوثائق السلطانية خلال العصر العلوي، مساهمة في دراسة الخط المجوهر وسماته الفنية**(الرباط: مطبعة الأمنية، 2014)؛ محمد البندوري، **الخط المغربي المبسوط والمجوهر، قواعد وأشكال** (مراكش: منشورات أفروديت، ط. 1، 2012).

(3) القلقشندي، **صبح**، ج. 8، 89.

والخلفاء قبلهم، وترمز فقط للدولة المرينية ككيان سياسي جديد له شخصيته التي تميزه، وموقعه الذي يجعل منه قوة فاعلة بين دول الغرب الإسلامي والمسيحي المعاصرة له. وتبعا لذلك سنحاول توضيح أبرز السمات والخصائص التي اختصت بها العلامة المرينية دون غيرها كالآتي:

-حَلت العلامة المرينية في المراسلات الرسمية، منذ بداية حكم مؤسس دولة بني عبد الحق السلطان أبو يوسف يعقوب، محل العلامة الموحدية التي هي «والحمد لله وحده» وقطعت نهائيا مع كل ما كان يرمز إلى عقيدة التوحيد كشعار للموحدين ولدولتهم في المغرب الأقصى.[1]

-كانت العلامة المرينية توضع عادة عند نهاية مكتوب مراسلات ملوك بني عبد الحق ومعاهداتهم عكس الموحدين والحفصيين، وهو نفس المنحى الذي سار عليه معاصروهم من ملوك بني الأَحمر بغرناطة[2] وبني عبد الوَاد بتلمسان.[3] وغالبا ما تكون نهاية هذا المكتوب، خاصة الرسائل، في موضع من أعلى وجه الورقة التي يُكتب عليها، أي في أعلى **الدَّرْج** كما أصطلح على تسميته القلقشندي، وليس في أسفلها كما هو الأمر في المعاهدات المبرمة مع ملوك أوروبا أو في المراسلات التي يقصر مكتوبها وهي معدودة. وفي هذا السياق ذكر ابن الأحمر أن العلامة عند ملوك بني مرين قد «جَعلها بعضهم في أول المُهْرَق بعد البسملة، وجعلها بعضهم في آخره عند ختم الكلام.»[4] والعلامة بهاتين الصيغتين تَختتم مسار تسلسل كلمات نص الوثيقة من بدايتها في مراعاة لأبعاد الورقة -وإن اختلفت أحجامها- بالقدر الذي يعمل فيه الكاتب على استغلال كامل مساحة الصحيفة/الوجه منها، مع ترك بعض البَيَاضات المُقَدرة في الحواشي أو الطُّرَر وأول الدَّرْج وما بين السطور بطريقة تنم عن مهارة في

---

(1) انظر:
Serge Gubert, «Pratiques diplomatiques Mérinides (XIII$^{e}$-XV$^{e}$ siècle),» in: *Oriente Moderno*, Roma, n°88 (2/2008): 455.

(2) للمقارنة يمكن مراجعة نماذج أصلية من الرسائل والمعاهدات النصرية في:
ACA, Cartas árabes, n$^{os}$ 3, 28,74 (Los documentos, Carta n°3,1-3, Carta n°28, Carta n°74, 143-144).

وانظر أيضا:
Rachel Arié, *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492)* (Paris: Editions E.de BOCCARD, 1973), 212.

(3) للمقارنة يمكن مراجعة نموذج أصلي من الرسائل والمعاهدات الزيانية في:
ACA, Cartas árabes, n°111 (Los documentos, Carta n°111).

(4) ابن الأحمر، **مستودع العلامة**، 21.

الإبداع وحُسن في التدبير.[1] ومهما كان نص المكتوب طويلا فلا يتم بأي حال تجاوز وجه الصحيفة الواحدة أو ما يطلق عليه **المُهْرَق** عند أهل صنعة الإنشاء إلا استثناءً [2](شكل3)، ولذلك تتخذ الكتابة شكلا هندسيا مُتناسِب الحروف والكلمات في تَساوُقٍ مُثيرٍ ليرسم شبه مثلثين مقلوبين من اليسار إلى اليمين ثم شبه مستطيل في الأعلى حتى ينتهي إلى آخر الكلام، وتُكتب في آخره العلامة السلطانية بقلم الثُلث يتلوها حرف هاء مَشْقُوقَة راجعة إلى الخلف تأكيدا على نهاية المكتوب وختامه[3] (شكل4). وهذا التنوع في جمالية الخط من جهة، وجمالية الأشكال الهندسية الخطية من جهة أخرى، هو ما يشد القارئ والمتصفح للرسائل والمعاهدات المرينية ويقف مشدوهاً أمام لوحة فنية بديعة ومتناسقة، يُساهم في تشكيلها كل من كاتب الرسالة وهو يرسم كلماتها بقلمه، والسلطان أو صاحب العلامة وهو يوقع/يعلِّم عليها بالعلامة بخط يده. (شكل 4)

(1) لـمزيد من التفاصيل حول مسألة ضبط البياضات ومقاديرها أثناء الكتابة يراجع القلقشندى، **صبح**، ج. 6، 195-196.

(2) مما نحيل عليه في حكم هذا الاستثناء أربع رسائل رسمية وأصلية، الأولى من السلطان أبي يوسف يعقوب أول ملوك بني مرين إلى ملك فرنسا فيليب الثالث بتاريخ 20 رجب من العام 681هـ/1282 م، وهي التي سنقدم صورة عن أصلها في الشكل رقم 4 كنموذج يسري على باقي الرسائل الثلاث الأخرى، والثانية من السلطان أبي يعقوب يوسف ثاني ملوك بني مرين إلى ملك أرَگُون خايمي الثاني بتاريخ الفاتح من ذي الحجة من العام 703هـ/5 يوليوز1304 م، والثالثة من السلطان أبي ثابت عامر ثالث ملوك بني مرين إلى نفس ملك أرَگون بتاريخ 20 ذي القعدة من العام 707هـ/12 ماي 1308م، والرابعة من السلطان أبي الربيع سليمان رابع ملوك بني مرين إلى نفس ملك أرَگون بتاريخ 24 ربيع الثاني من العام 709هـ/1 أكتوبر 1309م. كل واحدة من هذه الرسائل استوعب مكتوبها وجه الورقة كاملا ثم استرسل الكاتب لإتمامها في موضع من أعلى ظهرها حيث كتبت العلامة السلطانية كختام لها، علما بأن هذا الظهر يكون في العادة مخصص فقط لكتابة ما يعرف عند كتاب ديوان الإنشاء «بالعُنْوَان» الذي يتضمن اسم الملك المكتوبة إليه وتحليته بجملة من الألقاب الملوكية المُفَرَّعَة سواء المُفرَدة أو المُرَكَّبة، ثم التصريح بما يليق به من التعظيم والتوقير والتبجيل وما يستدعيه المقام من رفع لمراتب الدعاء، كل ذلك بحسب ما تقتضيه الأعراف الدبلوماسية. ولذلك يكون العنوان كالعلامة، دال على مرتبة المكتوب إليه من المكتوب عنه. وتندرج خاصية «العُنوان» حسب القلقشندي وغيره ضمن شروط الكتابة وآداب الكُتَّاب. القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 348-351. تحمل الرسالة الأولى رقم: (J //937/II/3) بالمكتبة الوطنية بباريس، أما الثانية فتحمل رقم 78 والثالثة رقم80 والرابعة رقم 82 في:
ACA, Cartas árabes, nºs 78, 80,82 (Los documentos, carta nº 78, 157, carta nº80, 162-163 et carta nº82, 165-166).

(3) وضح القلقشندى بالتفصيل طريقة الكتابة في دواوين الإنشاء وكيفية استغلال كتاب الرسائل لمساحة الورق في المكاتبات الصادرة عن ملوك المغرب. القلقشندي، **صبح**، ج. 7، 39 وج8، 78-79؛ انظر أيضا: أحمد عزاوي، «الرسائل السلطانية،» **معلمة المغرب**، ج. 13، 4334-4335، و:
Jadla, «De l'usage,» 168.

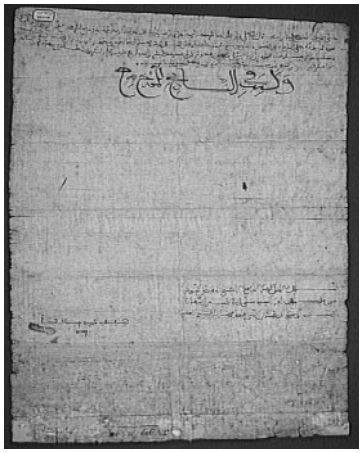

**الوجه** **الظهر**

شكل3: رسالة السلطان المريني أبي يوسف يعقوب إلى ملك فرنسا فيليب الثالث، كُتب جل نصها كما يظهر على وجه الورقة والباقي على ظهرها ثم العلامة السلطانية «وكتب في التاريخ المؤرخ به» بخط يد السلطان بعد نهاية المكتوب في الأعلى، وتحت العلامة في الأسفل كتب عنوان الكتاب/الرسالة يتضمن اسم المكتوبة إليه وألقابه مع عبارات التقدير والتشريف مشفوعة بالدعاء.[1]

شكل 4: نموذج لشكل وطريقة كتابة الرسائل (رسالة السلطان المريني أبي الحسن إلى بيدرو الرابع ملك أرَگون بتاريخ 29رجب 751هـ/14 شتنبر 1350م).

(1) كتبت صيغة العنوان (Adresse) في ظهر هذه الرسالة على الشكل التالي: «الملك الأجَلُّ الأعَزُّ الأرْفعُ الأسْنى المُفضَّلُ المُوثِرُ دون فليب ملك افْرَنْسِيَة سَنَّى الله تيْسيرَ السعادة السَّنية ويسَّره للأعمال التي يفوز فيها بالشيَم العَلِية،» وعلى هذا المنوال كُتبت العناوين على ظهر أغلب الرسائل المرينية بل حتى رسائل بني الأحمر وبني عبد الواد الموجهة إلى مختلف ملوك أوربا حسب أسمائهم وألقابهم وممالكهم.

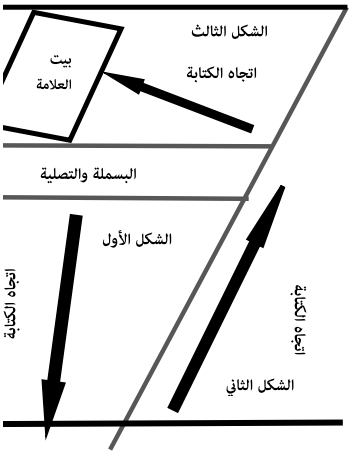


شكل 5: شكل هندسي توضيحي يمثل مسار واتجاه الكتابة وموضع العلامة السلطانية كما هو مبين في الرسالة المصاحبة وأغلبية الرسائل المرينية.

-وإذا كانت العَلامة المرينية توضع كما رأينا سابقا عند نهاية مكتوب الرسائل أو المعاهدات سواء جاءت هذه النهاية في أسفل وجه الورقة أو في أعلاها أو حتى في ظهرها، فإنها عادة ما تتخذ مواضع مختلفة من حيز الورقة، ولكن في أغلب الحالات توضع جهة اليسار أو اليمين كما نتابع في النماذج التي نستعرضها في هذه الدراسة؛ وهو ما يمكن ملاحظته كذلك في مراسلات ومعاهدات ملوك بني الأحمر بغرناطة وملوك بني عبد الواد بتلمسان وربما ملوك المرابطين قبلهم. وهي ملاحظة قد تجد مبرراتها في التقاليد السلطانية التي كانت متبعة في زمن دولة الخلافة في المشرق، وهي تقاليد تعود أصولها إلى العهد النبوي إذ كان الرسول ﷺ يَختم بخاتَمه النبوي الذي نُقشت فيه عبارة «محمد رسول الله» أسفل الرسائل التي كان يبعثها إلى ملوك عصره، وتوضح جملة من أصول هذه الرسائل التي وصلتنا حتى الآن أن هذا الختْم/العلامة كان يوضع مرة في جهة اليمين وأخرى في جهة اليسار.[1] فهل يمكن القول أن سلاطين بني مرين رغبوا في المحافظة بهذا المعنى على التقليد النبوي الذي سار

(1) اهتمت أمهات المصادر التاريخية الإسلامية والعديد من الدراسات العربية والأجنبية بذكر هذه الرسائل النبوية واستعراض نصوصها ودراستها، ونقتصر هنا على ذكر دراسة وثائقية موسعة نشرت كثير من هذه الرسائل منسوخة أو أصلية مع صور لها تُظهر علامة الختم النبوي ومواضعه؛ انظر للمقارنة محمد حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** (بيروت: دار النفائس، ط. 6، 1987)، الوثيقة رقم 21، (99-103)، الوثيقة رقم 26، (107-110)،الوثيقة رقم 49، (135-137)، الوثيقة رقم 53، (139-142)، الوثيقة رقم 56 ثم 57، (144-148)،الوثيقة رقم 76، (161-163).

عليه الخلفاء الراشدين بعده؟ وهل وجدوا في استلهامه ما يحقق لهم نوعا من التميز اتجاه الموحدين الذين سبقوهم والذين خالفوا تلك التقاليد في كثير من نُظُمهم من بينها اختيارهم لوضع علامتهم في أعلى رسائلهم بين البسملة والتصلية؟

-تُكتب الكلمات المُؤلِّفة لصيغة العلامة وباقي كلمات نص الرسالة السلطانية الرسمية المرينية على «نمط سَفِينِي وزَوْرَقِي» كسِمة مميزة للخط المُجَوْهَر المغربي كما هو الحال بالنسبة للخط الديواني العثماني، حيث يتجه السطر في آخره إلى الأعلى على شكل مقدمة السفينة أو الزورق وينتهي السطر مرتفعا كلما اقترب من النهاية.[1] وهو ما يسمح أولا، باستغلال جيد وكثيف لمساحة الصحيفة أي وجه الورقة التي يُحَرر عليها المكتوب،[2] ويحفظها ثانيا من أي اندساس أو تحريف أو تزوير (شكل 6). ولعل أمتَع وصف يصور بدقة متناهية المسار الخطي الذي ابتدعه كُتاب الإنشاء بالغرب الإسلامي عامة والمغرب المريني خاصة، في كتابة الرسائل عن ملوكهم ورسم العلامة السلطانية فيها هو الذي أورده القلقشندي بعد أن حدد طبيعة ومقياس الورق الذي يكتبون عليه وشكل السطور فيه فقال: «والسطور مُنحَطَّة الأوائل مرتفعة الأواخر حتى يصير البياض الذي في أعلاها في آخر سَطرِ البسملة قَدْرَ شِبْر فقط، وبين كل سطرين قَدْرُ عَرْض إِصبع ونصف إصبع، وكل سطر ينقص عن الذي فوقه قليلا من جهة اليمين على التدريج، حتى يكون السطر الآخِر قطعة لطيفة في زاوية الطُّومار(يعني الورقة وبالضبط الوجه الذي يُكتب عليه) التي على اليسار من أسفل، ثم يكتب بحاشية الطُّومار من أسفله آخذا من آخِر السطر الأخير، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قَدْرَ رأس خِنْصَر... حتى ينتهي إلى آخر الكلام؛ ويكتب في آخره بقلم الثُّلُث: وكُتب في التاريخ المؤرخ، ويُزاد فيه هاء مَشْقُوقَةٌ راجعةٌ إلى الخلْف.»[3]

(1) خبطة الحسني، **الخط المجوهر**، 260؛ وله أيضا: **الخط الفاسي**، 326، حيث اعتبر أن الخط الفاسي الذي عرف كذلك بالخط المجوهر قد أصبح منذ العصر المريني خطا رسميا في الدواوين السلطانية بالمغرب واعتمد في كتابة الرسائل السلطانية وغيرها. كما أشار محمد المنوني إلى أن الخط المُجوهر هو أكثر الخطوط المغربية استعمالا في كتابة المراسيم السلطانية والرسائل الخصوصية والعمومية وغيرها، انظر في ذلك كتابه القيم بعنوان: **تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم2، ط. 1، 1991)، 47.

(2) يستفاد من كلام القلقشندي في موضوع قَطْع الورق الذي تجري فيه مكاتبات السلاطين في الغرب الإسلامي ومعاصريهم من ملوك أوروبا وبلاد السودان أنه يتميز بمقاييس دقيقة ومعايير معروفة عندهم حيث يقول: «وأما بلاد المغرب والسودان وبلاد الفَرَنْج، فعادة كتابتهم في طومار واحد (يقصد بالطومار هنا الورقة الكاملة) يزيد طوله على عرضه قليلا، ما بين صغير وكبير بحسب ما يقتضيه حال المكتوب.» القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 193.

(3) القلقشندي، **صبح**، ج. 8، 78-79، ينطبق هذا الوصف على جل النماذج التي أدرجنا في هذا البحث وهي تشهد على ذلك.

شكل 6: تظهر العلامة المرينية هنا ملازمة لنهاية نص الرسالة الذي وافق أعلى الصحيفة وبداية المكتوب حيث كتبت البسملة والتصلية (الصدر).[1]

- كما تُكتب عبارة العلامة المرينية وباقي كلمات نصوص المعاهدات التي عقدها ملوك بني مرين مع ملوك النصارى بخلاف مراسلاتهم، على نمط هندسي موحد مكون من أسطر أفقية عموما (شكل 10 و11) وعمودية أحيانا (شكل 22) تشغل مساحة الصحيفة المكتوب عليها إما كليا أو جزئيا.

- وتكتب كلمات العلامة السلطانية المرينية في سطر واحد بعد تأريخ مكتوب الرسالة محاذية له في موضعين، إما أمامه أو تحته كما هو مبين في صور نماذج الرسائل الأصلية السابقة والآتية ضمن هذا البحث. وإذا كان من معاني التأريخ أنه «نهاية الشيء وآخِره» فإن ما استقرت به العادة واستمرت عليه عند كُتاب الإنشاء عامة في الشرق والغرب الإسلاميين من كتابة التاريخ في آخر الرسائل أو غيرها من المعاهدات؛ لَينهض دليلا قاطعا على نهاية المكتوب مُحققا لخبَره، وأن موضع العلامة المرينية مباشرة بعد تأريخ المراسلة، لَيُعد هو الأخر بمثابة إعلان صريح وتأكيدي بانتهاء المكتوب وخِتامه، وتوثيق له وإشادة بصحة تاريخ كتابته، وأن العلامة أَمَارة تشهد على أنها آخر الكلام.[2]

---

(1) الصورة هنا تعود لرسالة وجهها السلطان أبو الحسن المريني إلى ملك أَرَگون بيدرو الرابع وقد نشرها ألَارْكُون تحت رقم 99 ضمن مجموعته وتحمل نفس الرقم في الموقع الإلكتروني:

ACA, Cartas árabes, nº99 (Los documentos, carta nº99, 196- 198).

(2) يلاحظ أن جميع المراسلات المرينية الرسمية ينتهي مكتوبها بهذه العلامة التأْريخية ولا يكتب بعدها أي شيء، في حين تنفرد المعاهدات المبرمة بين ملوك بني مرين ونظرائهم الأوربيين بإضافة الختم بالطابع (بالشمع الأحمر) مباشرة بعد كتابة العلامة. انظر مثلا معاهدة السلطان أبي الحسن مع ملك ميورقة المحال عليها في هذا البحث (شكل 22). وقد حدد القلقشندي مجموعة من المعايير التي تتعلق بوضع كتابة التاريخ من الكِتاب وصور وضع العلامة السلطانية في الكتابة، انظر ذلك في: القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 234 -236 و261-262.

-ومما يميز كلمات العلامة المرينية أيضا أن معانيها لم تكن لها أية خلفية دينية ولا حمولة مذهبية أو حتى سياسية كما دأب على ذلك بعض ملوك الغرب الإسلامي،[1] بل استعملوا عبارات لها علاقة بالزمن أو التأريخ. ولذلك فهي توضع -كما رأينا سابقا-مباشرة بعد ذكر تاريخ كتابة الرسالة بالأحرف وتكون تأكيدا لهذا التأريخ وتثبيتا له. وكمثال على ذلك ما جاء في آخر مكتوب رسالة السلطان أبي الحسن المريني إلى أمير غرناطة أبي الحجاج يوسف النَّصْري: «كُتب في التاسع لشهر جمادى الآخرة الكائن في عام خمسة وأربعين وسبعمائة، عَرف الله بركته وخيره بمنه لا رب غيره سبحانه. وكُتب في التاريخ المُؤرخ به.»[2] وأحيانا نجد هذا التأريخ الهجري الإسلامي المتبوع بالعلامة السلطانية مصحوبا في آخر مكتوب المعاهدات مع النصارى بما يقابله بالتقويم المسيحي، من ذلك ما ورد في ختام بنود المعاهدة التي أبرمت بين السلطان أبي الحسن المذكور ومبعوثي ملك مَيورقة دُون جَاقْمَة/خَايْمِي الثالث (Jaume III): «وكَمُل ذلك كله في يوم الخميس الخامس لشهر شوال المبارك من عام تسعة وثلاثين وسبعمائة، وبموافقة الخامس عشر لشهر أبريل العَجمي سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثلاثين. وكُتب في التاريخ المُؤرخ به»[3] (شكل 22).

-كما أنها تُكتب، مثلها مثل علامات أغلب ملوك الغرب الإسلامي، بأحرف كبيرة وبخط غليظ شديد السواد بقلم الثُّلث أو الخط المُجَوْهَر وهو ما نعته البعض كذلك ب «خط الثلث المغربي» أو «خط الثلث المشرقي المُتمغرب،»[4] لتأخذ شكلا متميزا وبارزا بخلاف باقي كلمات المكتوب التي جرت العادة في كتابتها أن تكون على نمط واحد من الخط الرقيق أو القلم الخفيف.[5]

(1) من بين الأمثلة على ذلك العلامة المرابطية «المُلك والعظمة لله» التي «يتصل معناها بالسند الديني الذي اعتمده المرابطون في دعوتهم» وأيضا بالخلفيات السياسية التي طبعت حكمهم لبلاد المغرب والأندلس، انظر بعض العناصر التفسيرية لذلك عند محمد البركة، **الدولة**، 90. كما نعتقد أن خلفاء الموحدين استندوا في اختيار علامتهم «والحمد لله وحده» على مرجعيتهم المذهبية «التوحيد» والتي عملوا من خلالها على محاولة تحقيق الأهداف والطموحات السياسية المتمثلة في «الإمبراطورية المُوَحِّدَة» أو «أمة التوحيد.»

(2) ورد نص هذه الرسالة كاملا تحت رقم 93 ضمن مجموعة:
Los documentos, carta n°93 (187-191).

(3) انظر نص المعاهدة وصورتها عن الأصل عند كل من: أحمد عزاوي، **الغرب الإسلامي**، ج. 3، 145-146؛ و
Henri Bresc, Yūsuf Rāgib, *Le sultan mérinide Abū l-Ḥasan ʿAlī et Jacques III de Majorque: du traité de paix au pacte secret* (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 2011), 73.

(4) انظر كل من المنوني، **تاريخ الوراقة**، 14، 47 وخبطة الحسني، **الخط الفاسي**، 313-315.

(5) تناولنا هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحات السابقة من هذا البحث، وفي نفس السياق اعتبر الباحث محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني أن الخط المُجوهر أو الخط الفاسي ظل هو خط الدواوين السلطانية في المغرب منذ العصر المريني إلى اليوم، انظر مقالته بعنوان، **الخط المجوهر**، 248-249، وكتابه: **الخط الفاسي**، 326.

-في مقابل ذلك، لم يكتف ملوك بني مرين باستعمال صيغة موحدة لعلامتهم أو استأثروا بها دون غيرهم من الأمراء وكتاب العلامة كما كان الأمر من قبل مع خلفاء الموحدين والمرابطين، بل اجتهدوا في أن تكون لهم ثلاث علامات مختلفة حسب درجات السلطنة ومراتب المشتغلين في خطة العلامة، وأيضا حسب أهمية موضوع المكتوب وارتفاع قدْر المُخاطَب: واحدة ينفرد بكتابتها السلطان بخط يده، وثانية خاصة بما يصدر عن الأمراء، وثالثة يخطها كُتاب مكلفون بكتابتها نيابة عن السلطان أو الأمير يسمون أصحاب العلامة.

-يتبين من خلال بعض الوثائق الرسمية والأصلية والإشارات المصدرية أن هنالك بعض الحالات الشاذة التي كانت تُستعمل فيها العلامة خارج مكونات السلطة الشرعية المرينية سواء من قبل أمراء مُنابِذِين للسلطان القائم،[1] أو في إطار التنازع على الحكم بين الأبناء عند وفاة السلطان، أو عند تمزق الدولة المركزية واقتطاع بعض ولاياتها أو جهاتها من قبل أمراء مُتَوثِّبين بها خاصة ببعض أطراف البلاد.[2] وكان أغلب هؤلاء يستهدفون من ذلك «شْرَعَنَة» خروجهم عن السلطة المركزية فاتخذوا الألقاب الملوكية والشارات السياسية، واصطنعوا لهم مَن يكتب لهم العلامة من الكُتاب؛[3] فكانوا يكتبونها بنفس الصيغة التي يكتبها أصحاب

(1) من أكثر الحالات الدالة على ذلك، انتفاض الأمير أبي علي عمر على والده السلطان أبي سعيد عثمان في مناسبتين ومنازعته في ملكه حتى تمكن من الاستبداد عليه مدة قصيرة بمدينة فاس، ليقرر الوالد في الأخير بعد استرجاع ملكه النزول للأمير على سجلماسة وبلاد القبلة متحكما في أمورها، فدون الدواوين واتخذ الألقاب السلطانية ومنها العلامة، واستعمل الفقيه أحمد بن الأُصَيْفر السرغيني كاتبا لعلامته، وكان أيضا صاحب القلم الأعلى عنده بسجلماسة. ابن الأحمر، **مستودع**، 68. ولا يخفى أن نفس الأمير كان قبل ذلك في بداية حكم والده هو الأقرب إلى أبيه من جميع أولاده بما فيهم أبو الحسن علي السلطان بعده، وكان حينها قد مكنه من تجميع ألقاب الإمارة وأمره باتخاذ العلامة الأميرية التي هي: «صَحَّ هذا» كما سنرى وشيكا. انظر ابن خلدون: **العبر**، ج. 7، 321- 322 و336-337.

(2) من هؤلاء مثلا الأمير عبد الحليم وأخوه عبد المؤمن وهما من أبناء الأمير أبي علي عمر بن السلطان أبي سعيد عثمان المذكور أعلاه، وقد تمكن الأميران على التوالي من تجديد رسم المُلك والسلطان بسجلماسة «تُراث أبيهما» حسب رأي ابن خلدون بين 763هـ/1362م و764هـ/1363م، فتلقبا بلقب السلطان واتخذ كل واحد منهما في مدة «حكمه» العلامة ومن يكتبها له من الكتاب أصحاب العلامة. انظر ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 422-425؛ ابن الخطيب، **نُفاضة**، ج. 2، 299-342.

(3) ذكر ابن الأحمر عددا من هؤلاء الأمراء الذين اتخذوا العلامة وترجم لمن كتبها لهم، فقد كتب العلامة للأمير عبد الحليم بن أبي علي عمر بن السلطان أبي سعيد عثمان بسجلماسة صاحب القلم الأعلى علي بن محمد بن معاوذ البلوي الغرناطي، وكتب لنفس الأمير أيضا بفاس القديمة فترة استبداده بها صاحب القلم الأعلى أبو سعيد رشيد بن يحيى بن محمد بن عمر ابن رشيد الفهري. ابن الأحمر، **مستودع**، 71؛ ابن الخطيب، **نفاضة**، ج.2، 307؛ ثم كتب العلامة للأمير عبد المؤمن أخ الأمير قبله بسجلماسة، صاحب القلم الأعلى محمد بن أبي علي حسون بن محمد بن البرق المنجعي. ابن الأحمر، **مستودع**، 71-72؛ وأخيرا الأمير عبد الرحمن بن علي أبي يَفْلُوسَن بن أبي علي بن السلطان أبي سعيد عثمان الذي كتب له العلامة فترة استبداده بمراكش بين 774هـ/1372م و784هـ/1382م ثلاثة كتاب و أصحاب القلم الأعلى وهم: أحمد بن محمد المتيوي البادسي وعبد الرحمان بن احمد المدعو بحجام النفزي الفاسي وعبد الله بن عبد الله ابن حذلم اللخمي. ابن الأحمر، **مستودع**، 72 و 74؛ وابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 447-452، 457-461.

العلامة عند الملوك المرينيين وهي «وكُتب في التاريخ،» في حين تجرأ بعضهم على استعمال علامة الملوك والسلاطين «وكُتب في التاريخ المُؤرخ به» لا علامة الأمراء «صَحَّ ذلك» كما جرت العادة، إلى درجة أن منهم من كان يضع نفس العلامة المعلومة للسلطان في مراسلاته إلى ملوك أوروبا في نوع من التحدي والنزوع إلى الاستقلال.[1]

**جدول 2: كُتاب العلامة للأمراء المنتفضين على السلطة المركزية.[2]**

| كُتاب/أصحاب العلامة | المهام والوظائف المتعلقة بخطة العلامة | مكان توليها | أمراء بني مرين (فترة «المُلك») |
|---|---|---|---|
| أبو المكارم منديل بن محمد بن محمد بن سعيد الكِناني | كاتب العلامة | فاس | الأمير أبو علي عمر بن السلطان أبي سعيد عثمان الثاني (714-715هـ/1315م-1316م) |
| الفقيه أحمد بن الأُصَيْفر السرغيني | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | سجلماسة | نفسه (715- 733هـ/1333-1316م) |
| الفقيه محمد بن محمد بن إبراهيم بن عيسى الحميري المالقي | كاتب العلامة | سجلماسة | نفسه (715- 733هـ/1333-1316م) |
| يوسف بن أبي الطيب بن منديل ابن محمد الكناني | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | فاس | الأمير منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق (760هـ/1359م) |
| عبد الرحمن بن خلدون (المؤرخ) | «كاتب السر والإنشاء» | فاس | نفسه |

(1) يحتفظ أرشيف تاج أرَگون ببرشلونة بنسخة أصلية وفريدة لرسالة من الأمير عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن بن الأمير أبي علي عمر بن السلطان أبي سعيد عثمان بعثها إلى ملك أرَگُون بيدرو الرابع بتاريخ 21 من شهر ذي الحجة عام 775هـ الموافق ليوم 03 يونيو من سنة 1374م. والمثير في هذه الرسالة أن اسم هذا الأمير يُحلى في مكتوبها بألقاب السلطان كالمتوكل وأمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، وتُختم كذلك بوضع العلامة السلطانية المعروفة للملوك وهي: «وكُتب في التاريخ المُؤرخ به.» ولعل ما يفسر هذه الحالة الشاذة في تاريخ كتابة العلامة المرينية، أن هذا الأمير كان في واقع الأمر يتصرف تصرف الملوك في مجال نفوذ يمتد من مراكش إلى سجلماسة وما يليها من البلاد الشرقية، وينازع السلطان الشرعي أبو العباس احمد بن أبي سالم على ملك المغرب الأقصى لحوالي عشر سنوات من 774هـ/1372م إلى 784هـ/1382م. حول تفاصيل هذه الفترة المضطربة من تاريخ بني مرين ينظر ابن خلدون، **العبر**، ج7، 447-461؛ أما فيما يخص نص الرسالة المذكورة والعلامة المتضمنة فيها فيمكن الرجوع إلى مجموعة ألاَرْكُون وأيضا الموقع الإلكتروني لأرشيف تاج أرَگون:
ACA, Cartas árabes, n° 100 (Los documentos, carta n°100, 201-202)

(2) استخرجنا معطيات هذا الجدول من خلال قراءتنا لأربعة مصادر أساسية تابع أصحابها وشاركوا في تطورات الأحداث التي صنعها هؤلاء الأمراء، كتاب **العبر** في جزئه السابع وكتاب **التعريف** له أيضا، و**نُفاضة الجراب** في الجزء الثاني لابن الخطيب، وأخيرا **مستودع العلامة** لابن الأحمر.

| | | | |
|---|---|---|---|
| أبو سعيد رُشَيْد بن يحيى بن محمد بن عمر ابن رُشَيْد الفهري | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | فاس القديمة وتازة | الأمير عبد الحليم بن الأمير أبي علي عمر ابن السلطان أبي سعيد عثمان الثاني (763هـ/1362م) |
| علي بن محمد بن معاوذ البلوي الغرناطي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | سجلماسة | نفسه (764-763هـ/1363-1362م) |
| أبو الفضل بن سعيد بن محمد ابن الربيب الكاسي | كاتب العلامة والأشغال وصاحب القلم الأعلى | سجلماسة | نفسه (764-763هـ/1363-1362م) |
| محمد بن أبي علي حسون بن محمد بن البرق المنجعي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | سجلماسة | الأمير عبد المؤمن بن الأمير أبي علي عمر ابن السلطان أبي سعيد عثمان الثاني (764هـ/1363م) |
| أحمد بن محمد المتيوي البادسي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | مراكش | الأمير عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن بن الأمير أبي علي عمر ابن السلطان أبي سعيد عثمان الثاني (776-784هـ/1382-1374م) |
| عبد الرحمان بن أحمد المدعو حجام النفزي الفاسي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | مراكش | نفسه (776-784هـ/1374-1382م) |
| عبد الله بن عبد الله ابن حذلم اللخمي | كاتب العلامة وصاحب القلم الأعلى | مراكش | نفسه (776-784هـ/1374-1382م) |

يبدو أن العناية والأهمية التي أولاهما ملوك بني مرين لهذه الخطة في نظمهم الإدارية والدبلوماسية، والاعتبار والحفاوة التي حظي بهما كتابها، هي التي أَوْحَت لأحد كبار كُتابهم وأدباءهم الأندلسيين أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر بتأليف كتاب خاص بموضوع العلامة السلطانية وأنواعها، والتعريف بأشهر كتابها وأصحابها في الغرب الإسلامي، سماه **مُستَوْدَع العلاَمة ومُستَبْدِع العَلاَّمة** بإيعاز وتشجيع من صديقه أبي زكريا يحيى بن أبي علي الحسين بن أبي دلامة كاتب علامة السلطان المريني أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم.[1]

ومن المعلوم أن أكثر علامات ملوك بني مرين استعمالا في مكاتباتهم كانت تُكتب في صيغتين وبهما يُعرف مصدرها، فأما الصيغة الأولى: «وكُتِبَ في التاريخ المُؤَرخ به» (شكل

(1) حظي العصر المريني أكثر من غيره بالتأليف بشكل مباشر أو غير مباشر في موضوعات ترتبط بمؤسسة ديوان الإنشاء وملحقاتها، خاصة ما يتعلق بالترسيل والعلامة والتوقيع وكل ما يهم النظم الإدارية المحيطة بالجهاز المخزني السلطاني عامة والجهاز الدبلوماسي تحديدا. وقد استعرضنا عناوين البعض منها في صدر هذا البحث وأحلنا عليها في كثير من صفحاته.

7و23) فهي تدل على أنها كُتبت بخط يد السلطان وأنه أُحيط بمضمون المراسلة التي عَلَّم عليها، وأما الصيغة الثانية: «وكُتب في التاريخ» (شكل 8) فهي إشارة على أنها وُضعت بخط يد صاحب العلامة نيابة عن السلطان.[1] وفي مقابل ذلك نجد علامة أخرى ثالثة، كما ألمحنا سابقا، لم يذكرها ابن الأحمر في مُستودعه وهي: «صَحَّ ذلك» (شكل 9) والتي كان يتخذها بعض الأمراء لأنفسهم بعلم ومباركة من السلطان الوالد خاصة ولاة العهد منهم، كما حدث مع الأمير أبي علي عمر حين كان وليا لعهد والده السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق «ووَضَع له ألقاب الإمارة، وصَيَّر معه الجُلساء والخاصة والكُتاب، وأَمَرهُ باتخاذ العلامة في كُتُبه... وخاطَبَهُ الملوك من النواحي وخاطَبَهم... وكاد أن يَسْتَبِد»[2] أو مع الأمير أبي الحسن، الأخ الأكبر لأبي علي ووولي العهد بعد خلع السلطان أبي سعيد لهذا الأخير، الذي «فَوَّض إليه في سلطانه تَفْويض الاستقلال، وأَذِن له في اتخاذ الوزراء والكُتاب، ووَضْع العلامة على كُتُبه وسائر ما كان لأخيه.»[3]

(1) ابن الأحمر، **مستودع**، 21. وسنرى أن نفس هذه الصيغة من العلامة المرينية وبنفس الأحرف الكبيرة التي كتبت بها وفي نفس الموضع من نهاية المكتوب في أسفل وجه الورقة أو في أعلاها، قد استعملها بعض ملوك بني الأحمر بغرناطة وأيضا بعض ملوك السعديين في بداية دولتهم. ففي رسالة وجهها السلطان مولاي أحمد الأعرج السعدي إلى ملك البرتغال جُوَاوْ الثالث (Joao III) والمؤرخة بربيع الأول عام 936هـ الموافق لشهر نوفمبر 1529 م تظهر عبارة «وكتب في التاريخ» في نهاية المكتوب، ونفس الشيء يتكرر في رسالة أخرى للأمير محمد بن عبد الله الغالب موجهة إلى الملك الإسباني فيليبي الثاني بتاريخ 12 رمضان 985هـ/23 نونبر 1577م؛ انظر هذه النماذج وغيرها عند: عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي**، ج. 8، 140-141؛
Pierre de Cenival, David Lopes, Robert Ricard, *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*, Première série-Dynastie Saadienne, Tome II, Seconde Partie (Portugal) (Paris: Paul Geuthner, 1946), 495-496.

(2) ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 321-322. وانظر أيضا:
Derek Latham, «Ibn Al-Ahmar's,» 320.

(3) ابن خلدون، **العبر**، ج.7، 323، وهناك رسالة من الأمير أبي الحسن المريني إلى ملك أرَكون خايمي الثاني (Jaume II) مؤرخة بسنة 723هـ/1323 م، وهو حينها كان وليا للعهد، يضع فيها علامته «صَح ذلك» مما يؤكد صحة ما رواه ابن خلدون؛ انظر الرسالة كاملة ضمن مجموعة ألَارَكون والأصل في:
ACA, Cartas árabes, n°83 (Los documentos, carta n° 83, 169-170).

شكل 7: صورة عن الأصل لرسالة أبي الحسن علي إلى ملك أَرَگون بيدرو الرابع، وتظهر العلامة في موضع ملازم لنهاية نص الرسالة الذي وافق أعلى الصحيفة وبداية مكتوبها حيث كتبت البسملة والتصلية (الصدر). وفي الجانب إلى اليسار صورة مكبرة للعلامة «وكُتب في التاريخ المُؤرخ به» بخط يد السلطان.

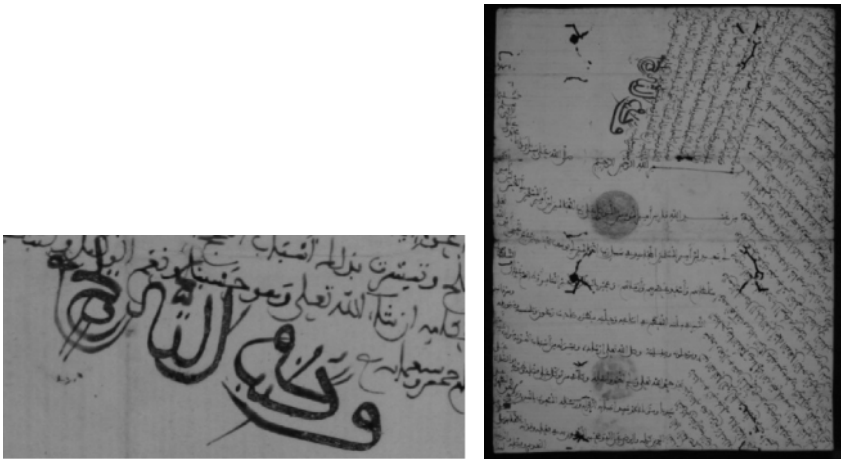

شكل8: صورة عن الأصل لرسالة مرينية موجهة من السلطان أبي عنان إلى ملك أَرَگون بيدرو الرابع.[1] وفي الجانب إلى اليسار صورة مكبرة للعلامة «وكُتب في التاريخ» بخط يد صاحب العلامة.

(1) كُتبت هذه الرسالة بتاريخ 28 ذي القعدة من عام 750هـ/1349م، وهي تتضمن العلامة بخط يد صاحب العلامة مكتوبة نهاية النص الموافق لأعلى الصحيفة وبداية المكتوب حيث توجد البسملة والتصلية، وتبدو آثار الطابع بالشمع الأحمر (الوجه) الذي يوضع عادة على ظهر الرسالة عند طيها وإغلاقها. تحمل هذه الرسالة رقم 101 في:

ACA, Cartas árabes, n°101 (Los documentos, carta n°101, 205-206).

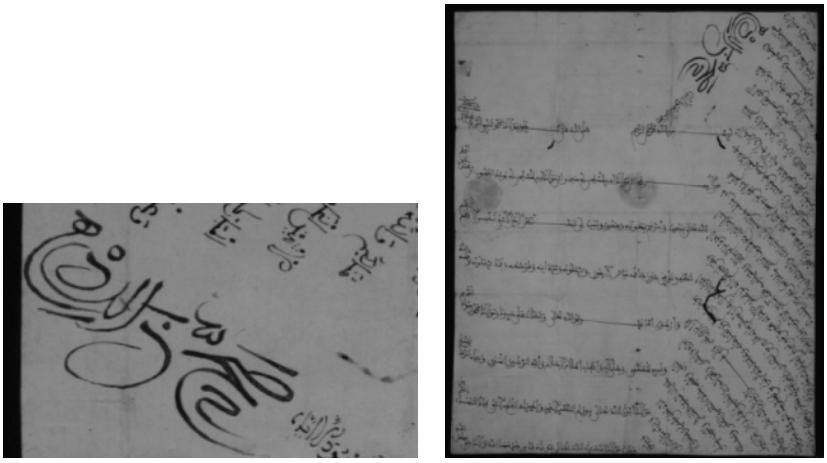

شكل9: صورة عن الأصل لرسالة مرينية تتضمن العلامة الأَمِيرِية «صَحَّ ذلكْ» موضوعة عند نهاية مكتوبها في أعلى الصحيفة، والموافق في نفس الوقت لصدرها، وفي الجانب إلى اليسار صورة مكبرة لنفس العلامة.[1]

بالإضافة إلى ذلك، تسمح بعض الرسائل والمعاهدات الرسمية الأصلية بالتعرف على علامة سلطانية رابعة غير متواترة عند المرينيين، اعتمدها ملكين من ملوكهم وكتباها بخط أيديهما كما يبدو، ولم يختص بها غيرهما إطلاقا، وهي أيضا غير مذكورة لا عند ابن الأحمر في مستودعه ولا كذلك عند غيره من المؤرخين، وصورتها: «وكُتب في التاريخ المُؤرخ أعْلاه» (شكل 10و11) التي تميز بها السلطان أبو عنان فارس، وكان يكتبها بخط يده عند نهاية المكتوب سواء في أسفل الصحيفة أو في أعلاها.[2] كما استعملها بعده ولده السلطان أبو بكر السعيد لفترة قصيرة لا تتجاوز السبعة أشهر، ولا نتوفر إلا على نموذج وحيد منها ورد في رسالة يتيمة تُنسب إليه.[3] وقد احتفظت بعض الأرشيفات الأوروبية بنصي معاهدتين أصليتين فريدتين

(1) هذه الرسالة مع العلامة للأمير أبي الحسن علي بعثها باسم والده أبي سعيد عثمان إلى ملك أرَگون خايمي الثاني بتاريخ 5 ربيع الأول من عام 723هـ وهي تحمل رقم 83 مكرر في:
ACA, Cartas árabes, n° 83bis (Los documentos, carta n°83 bis, 169-170).

(2) انظر حول هذا الاستثناء الفارسي:
Derek Latham, «Ibn Al-Ahmar's,» 321.
وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبا عنان، حسب شهادة الأديب والمؤرخ إسماعيل بن الأحمر معاصره، كان «فصيح القلم، كاتبا مُرسلا بليغا، بارع الخط، حسن التوقيع.» انظر: إسماعيل ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور (الرباط: المطبعة الملكية، ط. 2، 1991)، 38.

(3) من المعلوم أن العلامة التي اشتهر بكتابتها السلطان أبو عنان وتميز بها عن باقي ملوك بني مرين قبله وبعده هي نفسها التي تظهر في معاهدة تجارية بين هذا السلطان وكمونة بيزة الإيطالية (شكل 11). وكذلك في رسالة وحيدة منسوبة لابنه أبي بكر السعيد انفرد بذكرها ونص على العلامة في نهايتها لسان الدين ابن الخطيب، وهي موجهة إلى صاحب غرناطة محمد بن أبي الحجاج بن أبي الوليد المعروف اختصارا بمحمد الخامس. والأصل في التميز أو الاختلاف هنا مقابل علامات أسلافه ومن أتى بعده من ملوك بني مرين هو تعويض عبارة «به»

تظهر فيهما العلامة المنوه بها من وضع أبي عنان، الأولى معاهدة سلم وتجارة عُقدت سنة 751هـ/1350م مع ملك أرَگُون بيدرو الرابع (Pedro IV)، جاء في خاتمة مكتوبها ما يفيد بأن وضع العلامة السلطانية بخط يد أبي عنان تأكيد صريح على صحة العقد، والتزام شخصي من قبله بتنفيذ كافة بنوده: «وكَتَبَ ،أَعْلَى الله تعالى أمره وأعز نصره (أبو عنان)، خَطَّ يده الكريمة، إِعْلاَماً بصحة هذا العَقْد المبارك وتقريراً لحُكْمه»[1] (شكل 10)، والثانية عقد/معاهدة تجارية أبرمها نفس السلطان مع ممثلين عن تجار ورعايا كُمُونَة بِيزَة الإيطالية (Comune di Pisa) سنة 759هـ/1358م، وفي نهاية مكتوبها أكد لهؤلاء الممثلين التزامه باحترام كافة فصولها البالغ عددها الخمسة عشر، واحترام مدة سريانها المحددة في عشر سنوات كاملة ابتداء من تاريخ هذه المعاهدة/العَقْد «ولِأَنْ يكون ذلك صحيحاً، خَتَمْنا عليه بخَاتَمِنَا المَعْهُود عنَّا، وكَتَبْنَا عليه(العَقْد)عَلاَمتنا التي هي بِخَطِّ يَدِنا... وكُتِبَ في التاريخ المُؤَرَّخ أَعْلاَه.» [2] (شكل 11)

---

ب «أعلاه.» وإذا كانت كل المراسلات والمعاهدات التي تعرف لأبي عنان تؤكد على أن العلامة المعنية المكتوبة فيها تكتب بخط يده، فإن الرسالة المنسوبة لأبي بكر السعيد يكتنفها غموض وتطرح مجموعة من التساؤلات والشكوك تتعلق بالكاتب الحقيقي للعلامة الواردة في نهايتها، خاصة وأننا لا نتوفر حتى الآن إلا على نسخة وحيدة لهذه الرسالة وهي مستنسخة عن الأصل المفقود، فهل تم تقليدها من قبل صاحب علامته وهو هنا الكاتب أبو القاسم بن يوسف ابن رضوان النجاري ونسبت لأبي بكر السعيد؟ وهل يمكن فعلا أن يكون الأمير المريني هذا هو الذي كتب العلامة المقصودة نيابة عن والده الذي كان حينها طريح الفراش، مع أن عمره وقتها لم يكن يتعدى خمس سنوات فقط، وكان محجورا عليه من قبل وزيره المستبد عليه وقاتل والده أبي عنان وهو الوزير الحسن بن عمر الفودودي؟ مع العلم بأن الرسالة المعنية مؤرخة باليوم العاشر لجمادى الأولى من عام 760هـ وبيعة السعيد، صاحب الرسالة، كانت في مرض والده، أي في الخامس والعشرين لذي الحجة من عام 759هـ وأنه خُلع يوم الثلاثاء 12 شعبان من سنة 760هـ وقُتل غرقا في البحر بعد ذلك وله عشر سنين. انظر: ابن الخطيب، **نفاضة**، ج2، 221-224؛ ابن الأحمر، **روضة**، 40 -41؛ ابن خلدون، **العبر**، ج7، 396.

(1) إشارة لا لُبْس في أنها تؤكد ما قلناه آنفا، ومما يميز هذه المعاهدة أنها كُتبت على ورق من رَقِّ الغزال ويظهر جليا في أسفلها علامة السلطان وبقايا آثار خاتمه؛ انظر نص هذه المعاهدة في:

ACA, Cartas árabes, n° 106(Los documentos, carta n°106, 216) ;

Henri Bresc, Yūsuf Rāgib, Le sultan, 68 ;

واحمد عزاوي، **الغرب الإسلامي**، ج. 3، 300. وتوجد رسائل أخرى لأبي عنان موجهة إلى ملوك أرَگون يحمل الكثير منها العلامة «وكُتب في التاريخ،» أي أنها كتبت بخط يد صاحب العلامة وليس السلطان وهي منشورة في مجموعة ألَارْكُون:

Los documentos, carta n°101,( 205- 206), carta n°102,( 208),carta n°104, (212), carta n°,103, (210),carta n°105, (204),carta n°107, (217- 218), carta n° 140,( 310-311);

كما أن هناك ظهيرا ينسب لنفس السلطان يحمل ذات العلامة في آخره، مُنعم به على شرفاء بني أمغار أهل رباط عين الفطر قرب مدينة الجديدة بتاريخ 13 محرم من عام 755هـ وقد ورد نصه ضمن نسخة من مخطوط: **بهجة الناظرين وأُنْس العارفين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمْغار الصالحين** لأبي عبد الله محمد بن عبد العظيم الأزموري، الخزانة العامة بالرباط (الخزانة الوطنية)، رقم ج 377، من الورقة 34/ب إلى الورقة 35/أ.

(2) انظر النص الكامل لهذه المعاهدة التي كتب أصلها هي الأخرى على ورق رَقِّ الغزال باللغتين العربية واللاتينية عند:

Michele Amari,I Diplomi, vol. II, 1-11.

وقد أعاد نشر نصها العربي أحمد عزاوي، **الغرب الإسلامي**، ج. 3، 516-519.

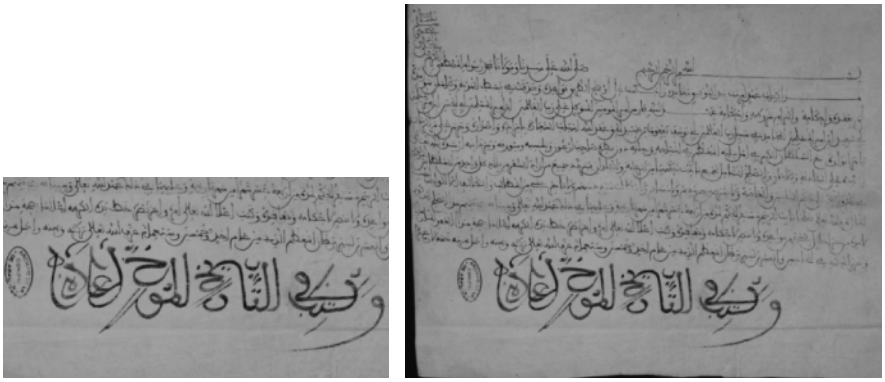

شكل10: صورة عن الأصل للمعاهدة التي عقدت بين السلطان المريني أبي عنان فارس وملك أَرَگُون بيدرو الرابع، وفي الجانب إلى اليسار صورة مكبرة للعلامة «وكُتب في التاريخ المؤرخ أعلاه.»[1]

شكل 11: صورة أصلية للمعاهدة التجارية التي أبرمت بين السلطان المريني أبي عنان فارس ومبعوثي كُمُونَة بيزة الإيطالية، ويظهر في الوسط عند نهاية النص العربي فوق وبداية النص اللاتيني تحت رسم علامة هذا السلطان «وكُتب في التاريخ المُؤرخ أعلاه»، وفي الجانب إلى اليسار صورة مكبرة لها.[2]

(1) أبرمت هذه المعاهدة بتاريخ 751هـ/1350م، وفي أسفلها عند نهاية المكتوب تظهر علامة السلطان بخط يده وفي آخرها حرف الهاء الانتهائية. أما نصها الأصلي فمحفوظ بأرشيف تاج أرَگون ببرشلونة تحت رقم 106 ونشرها ألاَرْگُون أيضا بنفس الرقم:

ACA, Cartas árabes, n°106 (Los documentos, carta n°106, 216)

(2) هذه الصورة تمثل النسخة الأصلية لنص المعاهدة التجارية بين أبي عنان المريني وكُمونة بيزة، وهي مؤرخة بيوم 28 ربيع الثاني من عام 759هـ الموافق ليوم 9 أبريل من عام 1358م. وهي كما أشرنا سابقا مكتوبة على ورق من رق الغزال، ولا تزال حتى اليوم محفوظة في حالة جيدة ضمن وثائق أرشيف الدولة بنفس المدينة الإيطالية ضمن سلسلة الوثائق الدبلوماسية العربية (Archivio di Stato di Pisa, Diplomatico deposito Bonaini).

وقد استعرضناها هنا نقلا عن الباحث التونسي محمد الورفلي الذي نشرها بدوره في مناسبتين:

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن جميع أشكال العلامات السلطانية المرينية الواردة في آخر المكاتبات الصادرة عن الملوك أو الأمراء والتي كانت تكتب بخط اليد سواء من قبل هؤلاء أو من قبل أصحاب العلامة، كانت دائما تُتبع بحرف الهاء مَشقوقَة راجعة إلى الخلف كما يظهر في الصورة أسفله[1](شكل12)، تماما كما كان يضعها الموحدون من قبل[2] (شكل 13)، وأيضا بنو الأحمر ملوك غرناطة (شكل 14)، وبنو عبد الواد ملوك تلمسان (شكل 15)، وحتى بعض ملوك الوطاسيين والسعديين.[3] بينما نجد فيما هو معروف من الوثائق الرسمية للحفصيين عدم اعتماد صيغة محددة ودائمة لوضع حرف الهاء بجانب علاماتهم، مرة توضع في الصدر، ومرة في الأسفل عند نهاية المكتوب، وأحيانا أخرى توضع بشكل مخالف لما هو معتاد عند باقي ملوك الغرب الإسلامي المعاصرين[4] (شكل 16 و17)، بل وفي بعض الحالات تكتب العلامة بدون حرف الهاء الانتهائية في آخرها[5] (شكل 18).

---

Mohamed Ouerfelli, «Le document diplomatique comme marqueur des relations entre Pise et les États du Maghreb (XII$^{e}$-XIV$^{e}$ siècle),» in: *Les échanges en Méditerranée médiévale: Marqueurs, réseaux, circulations, contacts* (Aix-en-Provence: Presses universitaires de Provence, collection Le temps de l'histoire, 2012), 83; *Id.*, «Diplomatic Exchanges between the City of Pisa and the States of the Maghrib (from the 12th to the 14th Century),» in: *Mediterranean World*, Tokyo, n°XXII (2015): 111.

(1) يشير القلقشندي إلى أن ملوك المغرب من بني مرين كانوا يكتبون علامتهم بخط أيديهم في آخر المكتوب بقلم الثلث، ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف وهو ما يظهر في النموذج الذي قدمناه تحته في الشكل 17 وغيره، **صبح**، ج.8، 79؛

Henri Bresc, Yūsuf Rāgib, Le sultan, 69.

(2) مما يلفت الانتباه في العلامة الموحدية وحرف الهاء الذي يتلوها أنها تكتب عادة في صدور رسائل خلفاء الموحدين بين البسملة والتصلية وبين بداية مكتوبها ثم يتلوها حرف الهاء في نفس الموضع (شكل 18 و19)، وهي بذلك تخالف موضع العلامة وحرف الهاء في الرسائل المرينية والنصرية والزيانية، وفي بعض الحالات الرسائل الحفصية. وإذا كان معنى الهاء في هذه الرسائل الأخيرة إعلان عن نهاية مكتوبها وبها تختتم، فإن الأمر بالنسبة للعلامة الموحدية والهاء المرافقة لها وهي تكتب في الصدر يحتاج إلى تفسير وتوضيح. فهل يصدق عليها نفس ما يصدق على الرسائل المرينية وغيرها مع أنها توضع في أول الكلام وليس في آخره؟ أم لأنها لا توضع في الصدر إلا بعد الانتهاء من كتابة نص الرسالة فتصبح هي آخر ما يكتب كعلامة على الانتهاء؟ أم لأن حرف الهاء هنا له معاني أخرى باعتبارها حرز للعلامة الموحدية وصَمام أمانها وأيضا ختام لكلام الرسالة؟

(3) نجد هذه الهاء الانتهائية أو «الجامعة» بنفس الشكل تقريبا في المراسلات الرسمية عند ملوك المغرب من الوطاسيين والسعديين، مع فارق وحيد هو خلوها من الخطوط التي تقطعها. انظر بعض الأمثلة على ذلك عند عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، المجلد السابع، عهد بني مرين والوطاسيين (المحمدية: مطابع فضالة، 1988)، 292 و301-302؛ وخبطة الحسني، **العلامة الطغرائية**، 185-209.

(4) وهو ما يخالف حتى القواعد التي تحدث عنها القلقشندي في وضع حرف الهاء مباشرة بعد العلامة وتكون مشقوقة راجعة إلى الخلف كما رأينا في نماذج متعددة في هذا البحث. انظر القلقشندي، **صبح**، ج. 8، 79.

(5) يمكن مراجعة مجموعة من الرسائل الدبلوماسية الأصلية لملوك الحفصيين مع ملوك مملكة أرَگون للوقوف على هذه الأشكال المختلفة من العلامات الحفصية والصيغ التي توضع فيها إشارة الانتهاء حرف الهاء وذلك في الموقع الإلكتروني الخاص بأرشيف تاج أرَگون المذكور أعلاه والمنشورة أيضا في مجموعة ألأرْكون بنفس الأرقام على التوالي: ACA, Cartas árabes, n$^{os}$133, 155,135 (Los documentos, n$^{os}$133, 155,135).

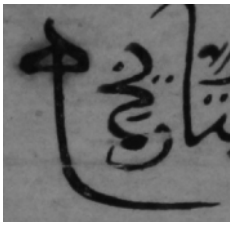

شكل 12: شكل عام لكتابة حرف الهاء مباشرة بعد العلامة المرينية تماما كما وصفها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى.[1]

شكل 13: صورة عن الأصل لرسالة الخليفة الموحدي أبي حفص عمر المرتضى إلى بابا الفاتيكان اينوصانت الرابع ويظهر جليا الحيز الذي تشغله العلامة من باقي محتوى الرسالة وحرف الهاء في آخرها، وفي الجانب إلى اليسار صورة توضيحية لها.[2]

(1) انظر التفاصيل في القلقشندي، **صبح**، ج. 8، 79.

(2) هذه صورة عن الأصل لرسالة الخليفة المرتضى الموحدي المحفوظة في أرشيف الفاتيكان بروما، وقد نشرت مع دراسة مستفيضة لشكلها ومحتواها في مجلة **هسبيريس** سنة 1926 ضمن مقال:
Tisserant et Wiet, «Une lettre,» 27-53.

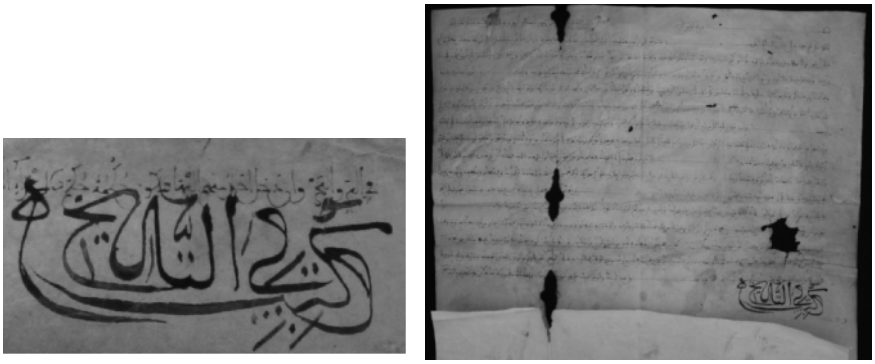

شكل 14: صورة النص الأصلي لمعاهدة سلم وصداقة أبرمت بين ملك غرناطة أبي عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نَصْر وخايمي الثاني ملك أرَگون، ويظهر في أسفلها إلى أقصى اليمين نص العلامة النصرية بخط يد ملك غرناطة وفي آخرها حرف الهاء الانتهائية، وفي الجانب إلى اليسار صورة توضيحية لتلك العلامة مع حرف الهاء.[1]

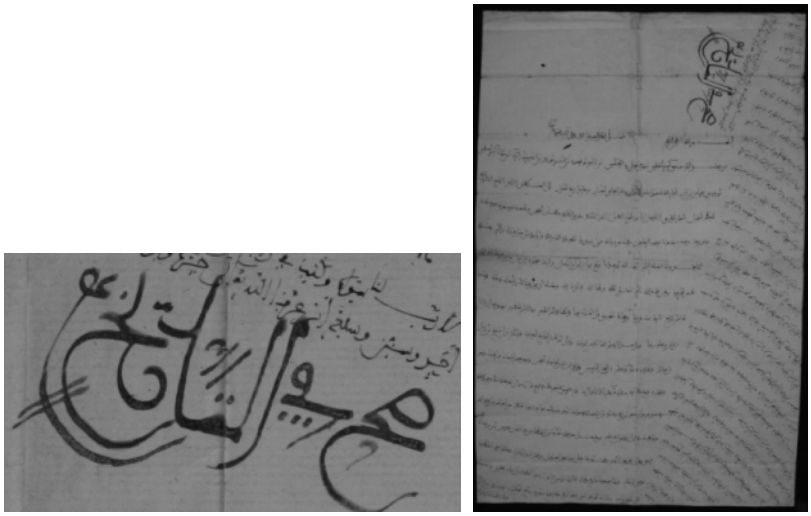

شكل 15: صورة النص الأصلي لرسالة من صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن أبي يعقوب بن أبي زيد بن أبي زكرياء بن يَغْمُرَاسَن بن زيان إلى ملك أرَگون بيدرو الرابع، وقد كتبت في نهاية مكتوبها إلى اليمين من أعلى الورقة علامته بخط يد صاحب العلامة وتتلوها هاء الانتهاء. وفي الجانب إلى اليسار صورة توضيحية للعلامة مع حرف الهاء.[2]

(1) هذه المعاهدة أبرمت بين ملك غرناطة أبي عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر وخايمي الثاني ملك أرَگون بتاريخ 11 رجب من عام 695هـ/15 ماي 1296م. يوجد نصها الأصلي ضمن محفوظات أرشيف تاج أرَگون ببرشلونة وقد نشرت في مجموعة:
ACA, Cartas árabes, n°3 (Los documentos, Carta n°3. 1-3).

(2) يوجد النص الأصلي لهذه الرسالة ضمن محفوظات أرشيف تاج أرَگُون ثم نشرت في مجموعة ألَارْگُون:
A C A, cartas árabes, n111°(Los documentos, Carta n°111).

شكل 16:صورة عن الأصل لرسالة الأمير الحفصي أبي بكر بن أبي زكرياء موجهة إلى ملك أرگون خايمي الثاني، ويظهر النموذج الأول للعلامة الحفصية هكذا: « من عبد الله الأمير أبي بكر بن الأمير أبي زكرياء بن الأمراء الراشدين» بالقلم الغليظ في موضع من صدر الرسالة ويتلوها حرف الهاء في آخرها. وفي الجانب إلى اليسار صورة توضيحية لشكل العلامة وطريقة وضع حرف الهاء المغايرة لما عهدناه عند باقي ملوك الغرب الإسلامي.[1]

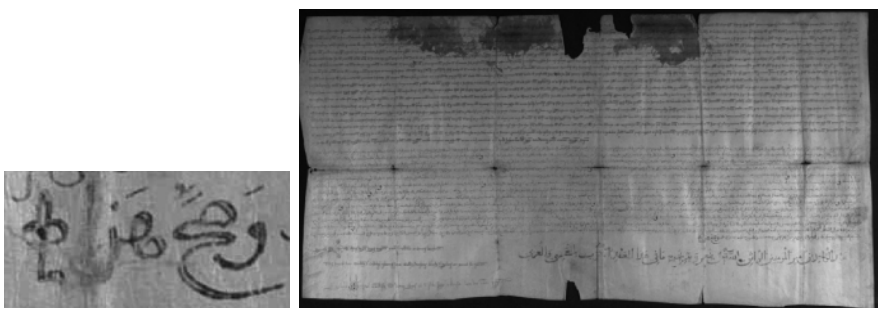

شكل 17: صورة عن الأصل لنص المعاهدة التي أبرمت بين الأمير الحفصي عبد الواحد بن الواثق بالله وملك أرگون الفونسو الثالث، ويُظهرالنموذج الثاني العلامة الأميرية الحفصية «وَصَحَّ هذا» في الأسفل عند نهاية المكتوب في أقصى اليمين، يتبعها حرف الهاء الدال على الانتهاء. وفي الجانب إلى اليسار صورة مكبرة توضح العلامة وحرف الهاء وطبيعة اختلافها شكلا ومضمونا عما هو معروف عند باقي ملوك وأمراء الغرب الإسلامي.[2]

(1) كُتبت هذه الرسالة بتاريخ 19 لجمادى الثانية من عام 713هـ الموافق للحادي عشر من أكتوبر سنة 1313م، ونصها الأصلي محفوظ بأرشيف تاج أرَگون تحت رقم 133، ونشرت بنفس الرقم ضمن مجموعة ألارْگُون:
A C A, cartas árabes, n°.133 (Los documentos, Carta n°133).

(2) أبرمت هذه المعاهدة بتاريخ الثامن عشر من شهر جمادى الأخرى عام 686هـ الموافق ليوم 29 يوليو من سنة 1287م، والنص الأصلي مكتوب باللغتين اللاتينية والعربية ومحفوظ في أرشيف تاج أرَگون تحت رقم 155، ونشرت بنفس الرقم ضمن مجموعة أَلَارْگون:
A C A, cartas árabes, n°.155 (Los documentos, Carta n°155).

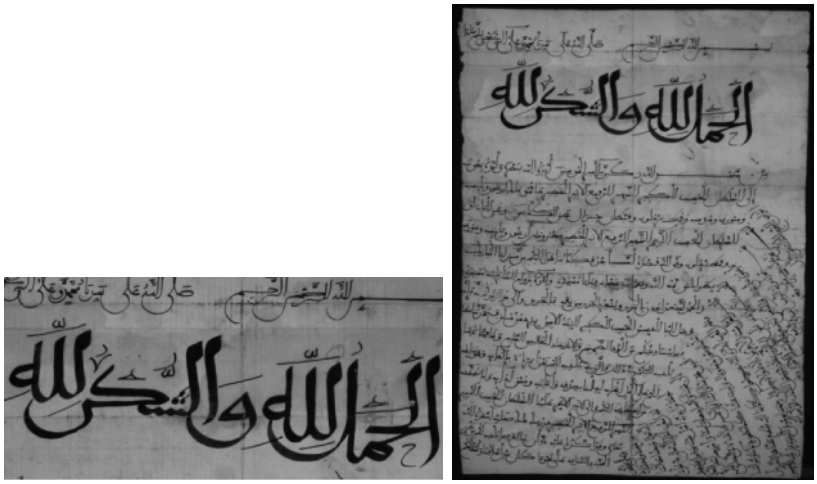

شكل 18:صورة عن الأصل لرسالة من السلطان الحفصي أبي يحيى زكرياء الملقب باللحياني إلى ملك أرَگُون خايمي الثاني، وتظهر العلامة «الحمد لله والشكر لله» في أعلى المكتوب عند الصدربين البسملة والتصلية والبداية وهي تخلو في آخرها من حرف الهاء. وهذا النموذج هو الثالث من العلامات الحفصية وهو الأكثر استعمالا عند ملوكهم، وفي الجانب إلى اليسار صورة توضيحية لشكل وموضع كتابتها.[1]

وحرف الهاء في الوثائق الدبلوماسية لدى أغلب دول الغرب الإسلامي اختصارٌ لفعل «انتهى،» وإشارة تدل على تمام الكلام وانتهاء نص المكتوب، وهي في نفس الوقت حِرْزٌ له وزيادة حيطة وحماية حتى لا تُضاف أو تُقحم كلمات جديدة بعدها، وهي أيضا حفظٌ للرسالة أو المعاهدة من أي تحريف أو تدليس. وما يثير الانتباه في هذه الهاء «الانتهائية» وباقي كلمات العلامة في المكاتبات السلطانية المرينية أنها تتميز كذلك، عكس المكاتبات الموحدية مثلا، بوجود خطوط مائلة أو منحرفة من اليمين إلى اليسار **(traits obliques)** تقطعها بشكل متواز، يختلف عددها من علامة إلى أخرى تبعا لنوعها وحسب مرتبة كُتَّابها وذلك كالآتي: ثلاثة خطوط بالنسبة للعلامة السلطانية التي يكتبها السلطان بخط يده كما نرى في الشكل 19، وخطين فقط بالنسبة للعلامة التي يضعها صاحب العلامة (شكل20)، في حين تنعدم هذه الخطوط في العلامة التي يخطها الأمير أو نيابة عنه (شكل 21).

(1) كتبت هذه الرسالة بتاريخ التاسع لشهر محرم عام 716هـ الموافق لليوم الثالث من أبريل سنة 1316م؛ انظر النص الأصلي والمنقول لهذه الرسالة في:
A C A, cartas árabes, n°.135 (Los documentos, Carta n°135).

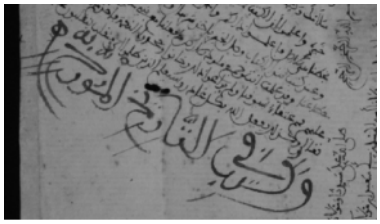

شكل 19: يظهر حرف الهاء في آخر كلمات نص العلامة المكتوبة بخط يد السلطان المريني وتقطعها ثلاثة خطوط.[1]

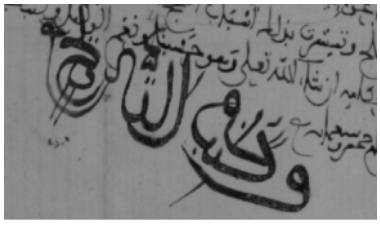

شكل 20: يظهر حرف الهاء في آخر كلمات نص العلامة المكتوبة بخط يد صاحب العلامة ويقطعها خطان.[2]

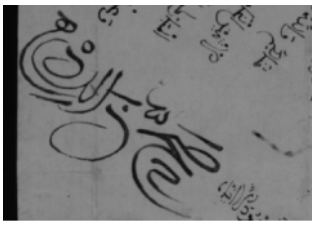

شكل 21: يظهر حرف الهاء في آخر كلمات نص العلامة المرينية التي يكتبها الأمير مع غياب أي خطوط تقطعها.[3]

(1) يلاحظ عند تتبع كلمات هذه العلامة «وكُتِبَ في التارِيخِ المُؤرخِ بِهِ» من أولها إلى آخرها، أن هناك تدرُّج في عدد الخطوط وحجمها وقد رُسمت هنا من باب علامات تشكيل بعض حروفها وضبطها بهدف إعطاء العلامة السلطانية جمالية ورونقا من نوع خاص، ولذلك نرى خطا واحدا يقطع آخر حرف الواو من كلمة «وكُتب» وهو رمز لحركة الكسرة لحرف التاء، وخطان يقطعان آخر حرف الخاء من كلمة «التاريخ» وهما يشيران إلى حركتي الكسرة لحرفي الراء والخاء معا، ثم ثلاثة خطوط تقطع آخر حرف الخاء من كلمة «المُؤرَّخ» مع آخر حرف هاء الانتهاء وهي علامة على ثلاث حركات كسر لحرف الخاء ثم حرفي الباء والهاء مِن «به» الموضوعة فوق حرف الخاء.

(2) نفس الملاحظة السابقة مع اختلاف في عدد الخطوط إذ تتدرج في هذا الصنف الثاني من العلامات المرينية التي يكتبها صاحب العلامة «وكُتِب في التارِيخِ،» من خط واحد يقطع آخر حرف الواو من كلمة «وكُتب» وهو يمثل حركة الكسرة لحرف التاء، وخطان يقطعان آخر حرف الخاء من كلمة «التاريخ» مع آخر حرف هاء الانتهاء وهما يرمزان إلى حركتي الكسرة لحرفي الراء والخاء.

(3) تتميز العلامة المرينية «صَح ذلِكْ» التي يكتبها الأمير أو من ينوب عنه بخلوها من الخطوط القاطعة لبعض حروفها المكونة لكلماتها ولحرف الهاء «الانتهائية» كما رأينا سابقا، ولعل ذلك يعود إلى أن حروف كلمات العلامة الأميرية غير مكسورة إلا حرف اللام من اسم الإشارة «ذلك،» فتكون حركة الكسرة هنا شبه معزولة.

وكما رأينا قبل هذا، فإن بداية تنظيم هذه الخطة رسميا عند بني مرين قد تم عبر مرحلتين أساسيتين، تشكلت ملامحها الأولى على الأقل في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف[1] بعد أن اقتصر في إسنادها على كاتب واحد يختاره من صنائعه ويثق بأمانته، إذ كانت «العلامة السلطانية في الدولة المرينية لم تختص بكاتب واحد، بل كلٌّ منهم يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله، لِمَا كانوا كلهم ثُقاتًا أمناء، وكانوا عند السلطان كأسنان المشط يتكلف بكتابتها أكثر من كاتب.»[2] وإذا كان ابن خلدون لم يحدد نوع العلامة التي يتحدث عنها في هذا النص، هل التي يكتبها السلطان بخط يده ولا يكتبها عنه غيره ؟ أم التي يختص بها صاحب العلامة ويكتبها باسم السلطان دون الحاجة للرجوع إليه؟ فإن ابن فضل الله العمري كان واضحا إلى حد ما عندما أورد إشارتين هامتين، الأولى تفيد بأن من عادة السلطان أبي الحسن بن أبي سعيد عثمان «إذا كُتب عنه كِتاب، يُكتب في أوله بخط الكاتب، بعد باسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، من أمير المسلمين المجاهد بهم في سبيل الله رب العالمين أبي الحسن علي ابن أمير المسلمين المجاهد بهم في سبيل رب العالمين أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين المجاهد بهم في سبيل رب العالمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، فإذا انتهى الكِتاب إلى آخره وخَتَمه الكاتب بالتاريخ، كَتب هذا السلطان بخطه في آخره ما صورته، «وكُتب في التاريخ المُؤرخ به»،»[3] ثم أردف في إشارة ثانية قائلا على لسان أحد رواته وهو أبو عبد الله محمد بن محمد السَّلالجي: «ولم يَكتُب أحد من ملوك بيته (يقصد السلطان أبي الحسن) هذا بيده، بل كان كاتب السِّر هو الذي يَكتب هذا، إلا هذا السلطان أبو الحسن وأخوه أبو علي عمر حين حياته، هذا مع وثوقه العظيم بكاتب السر الفقيه الفاضل أبي محمد عبد المهيمن ابن الحضرمي، واعتماده عليه ومشاركته في كل أمر له.»[4]

---

(1) انظر في ذلك ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 306؛ المنوني، **ورقات**، 62.

(2) تحدث ابن خلدون بإسهاب عن السياق السياسي الذي أَطَّر ردة فعل السلطان يوسف المريني واتخاذه مثل هذا الإجراء، وربطه بمسألة تعدد الكُتاب الذين كانوا يسهرون على كتابة العلامة السلطانية نيابة عن هذا السلطان. وقد تعرضنا بالتفصيل لهذا السياق سابقا بناءً على رواية ابن خلدون نفسه؛ انظر: **العبر**، ج. 7، 306؛ المنوني، **ورقات**، 62.

(3) ابن فضل الله العمري، **مسالك**، 149.

(4) ابن فضل الله العمر، **مسالك**، 149، وانظر أيضا: القلقشندي، **صبح**، ج. 5، 210. وقد ذكر ابن خلدون في تعريفه أن شيخه أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي كان رئيس كتاب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي كان يكتبها نيابة عنه أسفل المراسيم والمخاطبات، وفي بعض الحالات كان السلطان يكتب جزءا من هذه العلامة وليس كلها بخطه، التعريف، 513 و514. وفي نفس الموضوع وصف شاعر الزَّجل الزرهوني في مَلْعَبَتِه العلاَمة التي كان يخطها عبد المهيمن لسلطانه أبي الحسن أثناء حملة هذا الأخير إلى إفريقية وشبَّهها بالصومعة يقول:

إنْ كان تُوجَدْ حْمَامْ ولاَ رَقَّاصْ *** عَنْ السَّلْطان شْهَرْ وقِيلْ سَبْعَه
بكْتابْ عبـد المهيمــن الغَــوَّاصْ *** وعلَامَــه تَنْتشَـر كــمــا الصُّمْعَه

انظر: **ملعبة الكفيف الزرهوني**، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة (الرباط: المطبعة الملكية، 1987)، 60؛ وقد وردت نفس الأبيات مع بعض التحريف عند كل من ابن خلدون، المقدمة، 835؛ وأحمد المقري،

يفهم من كلام ابن فضل الله العمري ورواية السَّلالجي، أن ملوك بني مرين لم يكونوا يكتبون العلامة الخاصة بهم بخط أيديهم قبل أبي الحسن، وأن أصحاب العلامة أو كُتاب السر هم الذين كانوا يخطونها بأيديهم نيابة عن ملوكهم كما نستشف من كلام ابن خلدون في النص السابق. ولتوضيح الصورة أكثر، يمكن استحضار نص ثان لابن خلدون نفسه تتوافق معلوماته إلى حد كبير مع ما ذكره ابن فضل الله العمري في النصين السابقين، إذ يقول: «ولما استولى السلطان أبو سعيد (عثمان بن يعقوب بن عبد الحق) على المغرب ،واستقل بولاية العهد وتغلب على الأمر ابنه أبو علي ،وكان مُحبًّا للعلم مولَعاً بأهله مُنتَحلاً لفنونه . و كانت دولته خُلْواً من صناعة التراسل مذ عهد الموحدين للبداوة الموجودة في أولهم. وحَصَل للأمير أبي علي بعض البَصَر بالبلاغة واللسان تفطَّن به لشأن ذلك، وخُلُو دولتهم من الكُتاب المُرسلين، وأنهم إنما يحكمون الخطّ الذي حَذَقوا فيه. ورأى الأصابع تشير إلى عبد المهيمن في رياسة تلك الصناعة... فاقتصر (أي السلطان أبو سعيد) عليه (أي عبد المهيمن) وجعل وضع العلامة إليه سنة ثمان عشرة وسبعمائة فاضطلع بها ورَسخت قدمه في مجلس السلطان وارتفع صيته. و استمر على ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده إلى أن هَلك بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة.»[1] إن القصد من اقتباس هذا النص على طوله، كونه يقرر في مسألة غاية في الأهمية تتعلق بمرحلة فارقة في تاريخ «صناعة التَّرسيل» عامة و»كتابة العلامة» خاصة بالنسبة الدولة المرينية. إذ يرى ابن خلدون أن هذه الدولة منذ نشأتها لم تكن تُولي العناية اللازمة للارتقاء بخطتي الترسيل والعلامة لأسباب أرجعها أولا، لغلبة البداوة التي لم يأخُذها تَهْذيب الحضارة ولا استِحْكَام الصَّنائِع، وثانيا لغياب كُتاب بارزين في الترسل والعلامة يمكن أن ينهضوا بهاذين الفنين كما كان الأمر في زمن حكم الموحدين قبلهم. وهو رأي إن كان نابعا من عمق تحليل الرجل وتفكُّرِه ودقة ملاحظاته الموضوعية، فهو أيضا يُعبر بصورة ما عن موقفه الشخصي من هذا الموضوع بالذات.[2] ولعل ما يثير الانتباه أكثر، سواء

---

**أزهار الرياض في أخبار عياض**، ج. 2، تحقيق جماعي (الرباط –القاهرة: صندوق إحياء التراث الإسلامي، ط. 2، 1939-1942)، 224.

(1) ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 328-329.

(2) أعتقد أن ابن خلدون كان يعلن بطرق مختلفة عن بعض مواقفه الذاتية من بعض القضايا التي يعتبرها حساسة، فنجده يطلق أحكاما قاسية أحيانا، مثل ما قاله عن خطط «الحجابة «أو «كتابة السر» أو «العلامة» وموقعها في الدولة المرينية، وفسر عدم انتحالها أو عدم وجودها بحجة بداوة بني مرين وضعف تحضر دولتهم. ولأنه كان يسعى جاهدا للحصول على هذه الوظائف بالذات عند ملوك بني مرين دون أن يتمكن منها إلا نادرا ولوقت وجيز، فقد جعله ذلك يحس بنوع من الظلم في حقه وعدم تقدير مواهبه وإمكانياته العلمية والسياسية. والشاهد عندنا على ذلك طريقة تناوله لهذه الموضوعات الثلاثة والعبارات المستعملة لذلك في كتاباته المعروفة، وهي في نظرنا أمور تفضح بعض مواقف الرجل ومعاناته من منطلق أنها «ردود أفعال» وحسابات شخصية؛ فهل كان فشله في تحقيق رغباته وأحلامه الشخصية وراء أحكامه تلك؟ مما يرجح هذه القراءة حرصه على

في هذا النص أو في النصين الذين أوردناهما آنفا لابن فضل الله العمري، أن المؤرخان ربطا تنظيم وترسيم خطة العلامة بشكل خاص وخطة الإنشاء بشكل عام، بدائرة قيادة تتكون من السلطان أبي سعيد عثمان وولديه أبي علي عمر وأبي الحسن علي، وكان قُطب رَحاها كاتب السر عبد المهيمن الحضرمي مركز الاستقطاب وأداة التنفيذ.[1]

وحرصا منا على توضيح الصورة أكثر، وفي إطار المقاربة النصية لهذه الإشكالية، نقترح استدعاء نص آخر له وزنه وخصوصيته وهو «مستودع العلامة» لابن الأحمر الذي لا ينكر أن بعض ملوك بني مرين كان يُقدم لكتابة العلامة «رئيس كَتَبته، وربما شارك بعضهم في كَتْب العلامة كاتبه المقدم عليها،»[2] وذلك دون أن يُحدد هل يقصد بهذا ملوك العصر المريني الأول (يبدأ من عهد أبي يوسف يعقوب ويمتد إلى عهد أبي سعيد عثمان) ؟ أم العصر المريني الثالث (يبدأ من وفاة أبي عنان وينتهي بسقوط الدولة سنة 869هـ/1465م) الذي ألف فيه

---

التذكير كلما سنحت له الفرصة، في غير موضع من مقدمته وتاريخه وحتى رحلته، بموضوع ضعف صناعة الكتابة وأهلها خاصة في المرحلة الأولى من تاريخ الدولة المرينية من منطلق أن وظيفة «ديوان الرسائل والكتابة غير ضرورية في المُلك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول العريقة في البداوة.» **المقدمة**، 305-306. ويعتقد أيضا أن ارتقاء هذه الصناعة لا يقوم إلا بوجود كُتاب مرموقين من قبيل عبد المهيمن الحضرمي وابن خلدون بالتأكيد، وهو الذي يعتد بنفسه ويفتخر بكونه من هذه الطينة، فعندما تَسلم كتابة السر خلال فترة حكم السلطان أبي سالم المريني (760-762هـ/1359-1361م) كان لا يُشاركه فيها أحد ممن ينتحل الكتابة «لضعف انتحالها ،وخَفاء المعاني منها على أكثر الناس ،بخلاف غير المرسل، فانفردتُ به يومئذ، وكان مُستغربا عند مَن هم من أهل هذه الصناعة.» **التعريف**، 540-541، ولكنه عندما استعمله السلطان أبو عنان –قبل ذلك-في كتابته والتوقيع بين يديه صرح، بعبارات فيها نوع من الاحتقار، بأن ذلك كان على كُرْهٍ منه إذ لم يَعْهَد مثل هذه المناصب الصغيرة لسلفه. **التعريف**، 534. في نفس هذا السياق ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن تأخر ملوك بني مرين الأوائل في كتابة العلامة السلطانية بأنفسهم واستئثار كُتابهم باستعمالها دونهم، راجع في الحقيقة إلى أصولهم الأمازيغية وضعف امتلاكهم ناصية اللغة العربية وبلاغتها التي تسمح لهم بذلك؛ انظر: Kheneboubi, les premiers, 109; Bresc et Rāgib, Le sultan, 68.

(1) انظر تفاصيل قصة الإعجاب والتنافس بين السلطان أبي سعيد وولديه الأميرين أبي علي وأبي الحسن في محاولة كل واحد من الثلاثة استقطاب الكاتب عبد المهيمن حتى يزين به مجالسه العلمية ويشرف على ديوان كتابته وعلامته، عند ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 328-329. ومما يؤكد هذه الأهمية والحظوة التي أدركها الحضرمي خاصة عند كل من السلطانين أبي سعيد وأبي الحسن، والثقة التي كانت توضع في شخصه ككاتب لسرهما وصاحب علامتهما أنه حتى «إذا تَخَلَّف لِمرض، أو راح لبلد، تُوَجَّه الأوامر إليه التي لا بد من علاَمته فيها، إذ كان صاحب العَلاَمة؛» ابن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبي النور، ج. 3 (القاهرة: مكتبة دار التراث، ط. 1، 1971)، 173-174. ولعل قيمة الرجل وحضوره القوي على رأس كتابة السر والعلامة هي التي جعلت من ابن فضل الله العمري استنادا إلى رواية أبي عبد الله السَّلالجي، أن يتخذه مثالا فريدا لما كان يتقاضاه الكتاب من أرزاق ورواتب في دولة أبي الحسن «أما كاتب السر، وهو الفقيه الإمام العالم الفاضل أبو محمد عبد المهيمن بن الحضرمي، فلَهُ في كل يوم ،مثقالان من الذهب، وله مجَسَّران، يعني قريتين يتحصل منهما متحصِّل جيِّد ،وله رسوم كثيرة على البلاد، ومَنافع و إرْفاقات...وفي كل سنة بَغْلة بسَرْجِها ولِجَامِها وسَبَنِيَّةُ قُماش برسم الكُسْوة، نظير ما للأشياخ الكبار؛» ابن فضل الله العمري، **مسالك**، 148-149.

(2) ابن الأحمر، **مستودع**، 21.

كتابه المعني (توفي ابن الأحمر سنة 807هـ/1404م)؟ ومع ذلك، فإن ابن الأحمر سبق له أن ميز في مكان آخر من كتابه المذكور-وبشكل لا لُبْسَ فيه -بين العلامة التي يكتبها السلطان بخط يده، وبين العلامة التي يكتبها أصحاب العلامة نيابة عنه كما بيَّنا ذلك أعلاه، حيث يقول: «فإذا رأيتَ الصَّكَّ المريني وعلامته، «وكُتب في التاريخ المؤرَّخ بِه» فهي بخط يد السلطان، وإذا كانت «وكُتب في التاريخ» فهي بخط يد صاحب العلامة.» [1]وعندما نستحضر هذا التوضيح من مصدر متخصص وموثوق، نُدرك أن العلامة السلطانية بالصورة التي ذكرها ابن الأحمر كانت مستعملة فعلا منذ عهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، مؤسس الدولة المرينية. ففي وثيقتين رسميتين أصليتين، وهما الوحيدتان المعروفتان لهذا السلطان، الأولى عبارة عن ظهير كتبه هذا الأخير لملك قشتالة الفونسو العاشر(Alfonso X)،[2] والثانية رسالة موجهة منه أيضا إلى ملك فرنسا فيليب الثالث الجسور (Philippe –le-Hardi)[3] (شكل 4). وهما مؤرختان بتاريخ واحد هو 20 رجب من عام 24/681 أكتوبر 1282، كما نقف في آخر كل منهما على علامة السلطان التي خطها بيده وأكد على مصداقيتها في ضبط علاقاته مع كل من ملك قشتالة وملك فرنسا وباقي ملوك أوروبا. وبهذا المعنى، صرح السلطان المريني في الظهير الأخير الذي خص به ملك قشتالة الفونسو العاشر، بحرصه الشديد على الوفاء له بجميع الالتزامات التي تعزز عُرى الصداقة التي تجمع بينهما كملكين، وأنه «عَقَدَ لَهُ بِه (أي الظهير) عُهود الصداقة المَكِين ورُبى الصُّحبة التي لا تزال ثابتة متينة ...و أَمْضَى له بحَسَب هذا الرَّبْط الجميل والمَقْصد الجليل ...إمضاءً ثابتَ الإحكام مُؤَمَّنًا ...فمَن وقف عليه فليقف عند حدوده ولا يتعدى جميل مَقصوده وكتبَ المُوفى عشرين لشهر رجب الفَرْد المبارك عام أحد وثمانين وستمائة وكُتبَ في التاريخ المُؤَرَّخ بِه.»[4] وبهذه الصيغة التي كُتبت بها العلامة المرينية في بداية حكم أول ملوكهم ومؤسس دولتهم، سار على رسمها بنفس الرسم والصورة باقي ملوك بني مرين إلى آخر دولتهم، دون إغفال الدور الذي قام به ثاني ملوكهم يوسف بن يعقوب لضبط مهام الطاقم المكلف بخطة العلامة. من هنا نستنتج أن إشارة كل من ابن خلدون وابن

---

(1) المصدر نفسه.

(2) النص الأصلي لهذا الظهير محفوظ في أرشيف المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس تحت رقم ،:J.937, N°2 نشره كاملا مع ترجمته إلى اللغة الفرنسية سيلفستر دو ساسي منذ سنة 1826م؛ انظر:
Antoine-Isaac Silvestre de Sacy, «Mémoire,» 486- 487.

(3) النص الأصلي لهده الرسالة محفوظ هو الآخر بأرشيف المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس تحت رقم:
J.937, N°3 ، نشره نفس الباحث في نفس الدراسة المذكورة مع الترجمة إلى الفرنسية،
Antoine-Isaac Silvestre de Sacy, «Mémoire,» 488- 496.
وقد أعاد نشر هذه الرسالة والظهير قبلها احمد عزاوي، **الغرب الإسلامي**، ج. 2، 155-158 و159.

(4) هذه الفقرة اقتبسناها من نص ظهير السلطان يعقوب بن عبد الحق المشار إليه أعلاه وفيه تأكيد على إمضائه الشخصي عليه بعلامته، انظر النص العربي كاملا حسب الإحالة أعلاه.

فضل الله العمري إلى تنظيم وترسيم خطة العلامة التي سبقت الإشارة إليها تتعلق بمرحلة ثانية حاسمة تم التركيز فيها على إعادة تنظيم ديوان الإنشاء بما في ذلك خطة العلامة على أسس جديدة، وذلك في سياق مجموعة من التحولات التي بصم عليها المخزن المريني انطلاقا من فترة حكم السلطان أبي سعيد عثمان الذي أشادت بأعماله المصادر المغربية وكَرَّسته كمُؤسس فعلي للدواوين المرينية ومُشجع لحركة التدوين الإسطوغرافي شبه الرسمي.[1]

ونظرا لأهمية العلامة عند المرينيين في تأمين أسرارهم وتنفيذ أوامرهم على أحسن وجه، اعتنى ملوكهم بالجهاز الإداري المشرف على تنظيمها، وحرصوا على أن تكون عنوان هيبة دولتهم ومحل ثقتهم ومصداقيتهم عند مخاطبيهم خاصة من ملوك أوروبا. ففي معاهدة تجارية وسياسية بين المغرب وميورقة عُقدت بتلمسان بين السلطان أبي الحسن ومبعوثين عن ملك ميورقة خايْمي الثالث (Jaume III) بتاريخ الخامس لشهر شوال من عام 739هـ الموافق ليوم15من شهر أبريل من سنة 1339م،[2] وردت فقرة في آخر بنودها تشير إلى أن العلامة السلطانية الواردة فيها ضمان لصحة جميع بنودها وموافقة سلطانية على منطوقها، وأن الطابع السلطاني الذي تحمله تأكيدٌ على مصداقيتها وصَوْنٌ للمكتوب فيها، تماما كما هو الأمر بالنسبة لعلامات وطوابع الطرف الثاني من موقعي المعاهدة: «وعلى صحة هذا العقد كَتب مولانا السلطان أبو الحسن علامته المعلومة، وأمر بطابعه المعروف، ووَضَع الأَرْسال المُوكَلُون،

(1) انظر: محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983، ج. 1، 66؛ القبلي، **المجتمع**، 161.

(2) وُقِّعَت هذه المعاهدة /المهادنة في ظرفية سياسية مشحونة اتسمت أولا، برغبة السلطان المريني في فرض زعامة مغربية على الغرب الإسلامي وقيادته، وهي رغبة تستمد رمزيتها من المكان الذي شهد مراسيم هذا التوقيع بحضور السلطان نفسه وهو مدينة تلمسان عاصمة ملوك بني عبد الواد وبالضبط في إحدى قصوره بها. وثانيا، بتقوية موقعه الجيوسياسي في أفق مجابهة القوى الأوروبية المنافسة له على الريادة في مجال الحوض الغربي للبحر المتوسط وهي على الخصوص قشتالة وأرَگون والبرتغال. وإذا كانت بنود أو شروط المعاهدة المعنية قد نُسجت خيوطها لتكون معبرة بشكل واضح عن طموحات العاهل المريني، فإن صياغة ودلالات العبارات والمفردات اللغوية التي واكبت وضع العلامة السلطانية في ختام نص المعاهدة، وخاطب بها فريق المفاوضين الممثلين لملك ميورقة، تسير هي الأخرى في نفس الاتجاه وتعلن عن حضوره كفاعل قوي في معادلة التنافس/ الصراع في المنطقة. حول طبيعة هذه الظرفية التي مهدت لها وقائع ما قبل تاريخ توقيع المعاهدة وشكلت بالتالي عوامل مؤثرة لما أتى بعدها من تداعيات، يستحسن الاطلاع على الدراسات المتميزة الآتية:

القبلي، **المجتمع**، 162-181؛

Charles-Emmanuel Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIII^e et XIV^e siècles, de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hassan(1331),* (Paris: édition PUF, 1966), 571-588; *Id.*, «Méditerranée et Maghreb du XIII^e au XVI^e siècle,» in: *Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb*, Faculté des lettres d'Alger, n°3 (Juillet 1967): 75-87; *Id.*, «L'orientation de l'Europe occidentale vers le Maghreb au temps d'Ibn Khaldoun (1332-1406),» in: (1981) **أعمال ندوة ابن خلدون** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 476- 464; Bresc, Rāgib, *Le sultan*, 84- 98.

المُفَوَّضُ إليهم المذكورون طَوابِعهم، وكَتب مَن يُحسن الكتابة منهم خَطَّ يَدِه،»[1] وذلك منعًا لأي تدْلِيس و درءًا لأي تلْبِيس.[2] (شكل 22)

شكل 22: صورة للنص الأصلي لمعاهدة بين السلطان المريني أبي الحسن ومبعوثين خاصين لملك ميورقة خايمي الثالث تشمل العلامة السلطانية بخط يد السلطان والطوابع أو الأختام السلطانية أسفل المكتوب العربي على اليمين وبقايا آثار لعلامات وأختام مبعوثي ملك ميورقة على اليسار وجلها بالشمع الأحمر.[3] وفي الجانب إلى اليسار صورة مكبرة تظهر جزءا من تلك العلامات والأختام.[4]

(1) انظر:

Bresc, Rāgib, *Le sultan*, 69, 73.

ولتأكيد نفس الرغبة في توثيق نص المعاهدة في شقيها العربي واللاتيني وتحقيق مصداقيتها عند الطرف المغربي، وضع الطرف الميورقي هو الآخر توقيعاته وأختامه المختلفة الأشكال والخطوط تبعا لموقع ومكانة كل واحد من هؤلاء المفاوضين. ومن حسن الحظ فجميع هذه الأختام أو الطوابع بالشمع الأحمر لا تزال بعض معالمها بارزة بشكل واضح أسفل مكتوب المعاهدة سواء في صيغتها الكطلانية على اليسار أو في صيغتها العربية على اليمين، ويمكن ملاحظة بعض تفاصيل ذلك في الشكل 22.

(2) انظر:

Ouerfelli, «Le sceau,» 333-334.

(3) النص الأصلي لهذه المعاهدة محفوظ في أرشيف المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس تحت الرمز الآتي:
«Section des manuscrits latins n°9261, charte n°37, carton de Majorque.»

(4) تظهر في أسفل صورة المعاهدة المعنية إلى اليسار، أي في الشق اللاتيني منها، كتابات أو «علامات» باللغة الكطلانية (القرن 14م) وأربعة أختام أو طوابع للمفاوضين الميورقيين الممثلين لملك ميورقة خايمي الثالث (Jaume III)، وهم أنفسهم المذكورين في مطلع نص المعاهدة بالاسم والرتبة والصفة. فالعلامات هي بخط يد اثنين من هؤلاء وهما دَلْمَاو (Dalmau de Castelnou) والسفير أَمَلْرِيكْ (Amalrich vescomte de Narbona) بالإضافة إلى صورة خاتم كل منهما حيث يبرز الخاتم الكبير المنسوب للسفير ،أما صورتا الخاتمين المتبقيين فهما لكل من المدعوين أَمَلْرِيكْ (Amalrihc de Narbona senyor de Talayra)ابن عم أَمَلْرِيكْ السفير ثم أخيرا أُوكْيطْ (Uget de Totzó) ؛أنظر كلا من النصين العربي والكطلاني مع ترجمتهما إلى الفرنسية في:
Champollion-Figeac (Jacques-Joseph), *Documents historiques inédits tirés des collections manuscrites de la bibliothèque royale et des archives ou des bibliothèques des départements*, Tome

وفي مناسبة أخرى، حدث أن وقع توتر في العلاقات الدبلوماسية بين المغرب ومملكة أرَگُون بسبب ارتياب ملكها بيدرو الرابع (Pedro IV) في حقيقة العلامة الواردة في رسالة توصل بها من السلطان أبي الحسن واعتقد أنها ليست بخط يد هذا السلطان، كما أنها لا تتضمن طابع الشمع الأحمر المعهود للسلطان، وهو ما أثار شكوكا عنده حول صحة محتوى الرسالة فقرر رفض الاستجابة للمطالب السلطانية الواردة فيها ،والمتعلقة بالعمل على تحرير إحدى السفن المرينية (القُرْقُورَة) التي احتجزها رجال الملك الأرَگُوني في عرض البحر المتوسط وإطلاق سراح خدام السلطان الذين كانوا على متنها. إلا أن رد السلطان المريني على امتناع بيدرو الرابع عن تحقيق مطالبه، بحجة تشكيكه في صحة علامته، كان حاسما وقويا مؤكدا في رسالة جوابية ثانية على صحة علامته وصحة ما ورد من مطالبه في رسالته الأولى، ووضح بأن الطابع الذي يوضع في العادة لسد الرسالة بعد طيها وإلصاقها لا عِبرة له لأنه فقط يزيد من الحيطة لكيلا تُفك ويَطَّلع على ما فيها شخص آخر غير المكتوبَة إليه.[1] وفي سياق تدعيم موقفه، يقول السلطان أبو الحسن، موجها كلامه بنوع من الحدة والحزم إلى ملك أرَگُون، وهو مقتنع تماما بأن هذا الأخير يَعلم جيدا أن العلامة السلطانية صحيحة وأنه فقط يماطل في الاستجابة لمطالب السلطان لأسباب أخرى: «وذَكَرْتَ أنكَ لما وجدتَ كتابنا بغير طابع شمع وقَع عندك فيه ارتياب، فتوقفتَ في شأن القُرْقُورَة، وبعثتَ إلى والِيَكَ بميورقة بأن يوقفَ جميع ما كان فيها من الوِسْقِ حتى تتحققَ أن الكِتاب الذي وصلَك هو كتابنا، واعلم أن العَلامة التي نوقع في آخر كُتُبنا بخط يدنا هي علاَمة الصحة على ما كتبناه فوقها،[2] وأما طابع الشمع فلا

---

II (Paris: impremerie de l'institut de France, 1843), 112-121; Bresc, Rāgib, *Le sultan*, 72 – 81; Attallah Dhina, «Étude comparative de deux traités de Tlemcen :celui de 1286 entre le royaume abdalwadide et la Couronne d'Aragon et celui de 1339 entre le roi Jacques III de Majorque et le sultan marinide Abu l-Hasan,» in: *Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb*, Faculté des lettres d'Alger, n° 11 (Juin 1974): 29-37.

(1) سبق لابن خلدون والقلقشندي أن أسهبا في وصف الطريقة التي يتم بها طي وإلصاق الورقة التي يُكتب عليها نص الرسالة أو المعاهدة ووضع الشمع الأحمر عليها حتى لا يسمح بفكها والاطلاع على مضمونها، وهو الوصف الذي قد يساعد على فهم الطبيعة التقنية للخلاف الذي تناولته الرسالة المذكورة التي بعث بها السلطان أبو الحسن إلى ملك أرَگون. يقول ابن خلدون في هذا الصدد: «والحَزْم للكُتُب يكون إما بدَسِّ الورَق كما في عُرف كُتَّاب المغرب، وإما بإلْصاق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكِتاب كما في عُرف أهل المشرق. وقد يُجْعَلُ على مكان الدَّس أو الإلصاق علاَمة يؤْمَنُ معها من فَتحه والاطلاع على ما فيه، فأهل المغرب يجعلون على مكان الدَّس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نُقشت فيه علامة لذلك فيُرْسَم النَّقْش في الشمع.» **المقدمة**، 328. وانظر أيضا من أجل المقارنة: القلقشندي، **صبح**، ج. 6، 352.

(2) استنتج الباحثان هنري بريسك ويوسف راغب عند استشهادهما بهذه العبارة من الرسالة المذكورة، أن القصد منها كان هو الإحالة على وجود «علامة خاصة» للسلطان أبي الحسن غير تلك المعلومة له. وبناء على رأيهما، فإن تلك العبارة وردت بشكل ملتبس وأنها ترمز إلى ما أسمياه «علامة سرية» استعملها السلطان هنا تمويها أو تشفيرا، وهي في نظرهما تبقى غير معروفة، وأن مجرد الإشارة إليها في هذه الوثيقة وبذلك الشكل هو شيء غير مسبوق ولا يوجد له شبيه لا في باقي الرسائل والمعاهدات المرينية سواء المحفوظة في أرشيف تاج أرَگون ببرشلونة

عبرة به وإنما عُمِلَ حِياطة على الكتاب أَنْ لا يُفَكَ فَيُقْرَأ، وقد ذكر لنا عبد الرحمن ومسعود المذكوران، أنكَ لمَّا فَكَكْتَ الكِتاب ورأيت العلامة في آخره عَقَلْتَها وقلتَ هذه علامة السلطان، والشهادة على الخُطوط يُقطع بها الحُقوق، ثم وقفَ معكَ الوَهْم بعد ذلك، وذكرتَ في كتابك أنك إذ أثبتت عندك أن الكِتاب هو كتابنا، تعمل الواجب في هذا وفي غيره لأجل الصُّلْح الذي بيننا وبينك، كما يَعمل السلاطين للسلاطين.»[1] (شكل 23)

---

والمنشورة من قبل ألاَرْكُون وغيره، أو الموجودة في بعض الأرشيفات الأوروبية الأخرى كالفرنسية والإيطالية، ولا حتى في بعض المصادر التي اهتمت بموضوع العلامة المرينية بشكل عام. لكننا نعتقد أن الباحثين ذهبا بعيدا في هذا الاستنتاج، وأن الأمر لا يتعلق لا بعلامة خاصة أو سرية ولا حتى بعلامة مُشَفَّرة أو مَلْغُوزَة، لأن منطوق الرسالة –كما أوردناه هنا عن الأصل-كان واضحا وجليا ويفيد بأن العلامة المتحدث عنها واحدة ومعلومة، وهي فعلا تلك التي يوقع بها السلطان في آخر مكاتباته بخط يده، وهي أيضا علامة الصحة الوحيدة على ما هو مكتوب فوقها كما هو منصوص على ذلك في ختام الرسالة نفسها وهي «وكُتب في التاريخ المؤرخ به؛» انظر:
Bresc, Rāgib, *Le sultan* ,68.

وللوقوف على حيثيات هذه الملاحظة يمكن الرجوع إلى النص الكامل للرسالة المعنية ضمن مجموعة ألاَرْكُون:
Los documentos, carta n°99 (196- 198).

(1) كتبت هذه الرسالة الطويلة في 29 رجب عام 751هـ/ 14 شتنبر1350 م من ظاهر مليانة بالمغرب الأوسط التي لجأ إليها السلطان المريني في طريق عودته إلى المغرب الأقصى من إفريقية، وهو تاريخ يسجل المشهد الأخير والحزين من مسار حكم أبي الحسن، ويأتي بعد سلسلة متتالية من النكسات السياسية والعسكرية التي مني بها هذا السلطان، سواء في الأندلس بعد هزيمتين أمام النصارى في موقعتي طريف سنة 741هـ/1340م والجزيرة الخضراء سنة 743هـ/1342م، أو في إفريقية بعد نكبته أمام القبائل العربية في القيروان سنة 749هـ/1348م، وعودته من تونس منكسرا يجر أذيال الخيبة جراء فشل مشروعاته الوحدوية في بلاد المغرب وانهيار محاولاته لفرض زعامته السياسية في كل الغرب الإسلامي، والتي كادت أن تودي به إلى الهلاك عندما غرق أسطوله في البحر أمام سواحل بجاية بالمغرب الأوسط سنة 750هـ/1349م، ثم المعاناة التي كابَدها خلال عودته تلك بسبب نزاعه مع بني عبد الواد وتعرُّض جفن من أجفانه للقرصنة وهو يحمل حوائجه ومتاعه وأهله واحتجازها من قبل بعض البحارة التابعين لمملكة أرَكون سنة 751هـ/1350م، إضافة إلى حسرته المريرة بعد علمه بانقلاب ابنه أبي عنان عليه واستيلائه على العرش منذ سنة 749هـ/1348م، ليتحقق بعد كل هذا المسلسل الدرامي من أنه ضَيع ملكه وخسر كل شيء. كل هذه المأساة والمحن المتتالية التي امتحن بها أبو الحسن واستعرض تفاصيلها في هذه الرسالة شكلت في الحقيقة سياقا موضوعيا وجب استحضاره لفهم التوتر والانفعال الذي بدا واضحا على صياغة وتركيب كلماتها وفقراتها خاصة بعد تشكيك ملك أرَكون في صحة العلامة السلطانية وطابع الشمع الأحمر، وهو موقف غير مسؤول من هذا الأخير اعتبره السلطان المريني إهانة لشخصه وتنقيصا من هيبته وطعنا في رموز سلطانه. للإحاطة ببعض عناصر هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى النص الأصلي للرسالة المنوه بها وكذا نسخة منقولة عنها في:
A C A, cartas árabes, n° 99 (Los documentos, carta n°99, 196- 198) ;
واحمد عزاوي، **الغرب الإسلامي**، ج. 3، 262-265.
ومن أجل فهم دقيق للظرفية الإقليمية والمتوسطية التي واكبت معاناة أبي الحسن، وشكلت منعطفا حاسما وجب في نظري التأمل فيه عند قراءة نص الرسالة المذكورة على أساس أن قضية التشكيك في العلامة السلطانية المشار إليها من قبل ملك أرَكون، ليست في الحقيقة إلا مؤشرا أو عنوانا لأزمة خطيرة طبعت محاولة تدبير السلطان المريني لعلاقاته الإقليمية والمتوسطية في ظل تحولات سياسية معاكسة ومعاندة وهو في لحظة دفاع يائسة عن ملكه، من جهة أمام انقلاب ابنه أبي عنان عليه وهي الطعنة التي قسمت ظهره، ومن جهة ثانية أمام تملص ملك أرَكون من المواثيق التي كانت تجمعه بحليفه السلطان والتي كانت بمثابة خيانة مريرة في وقت

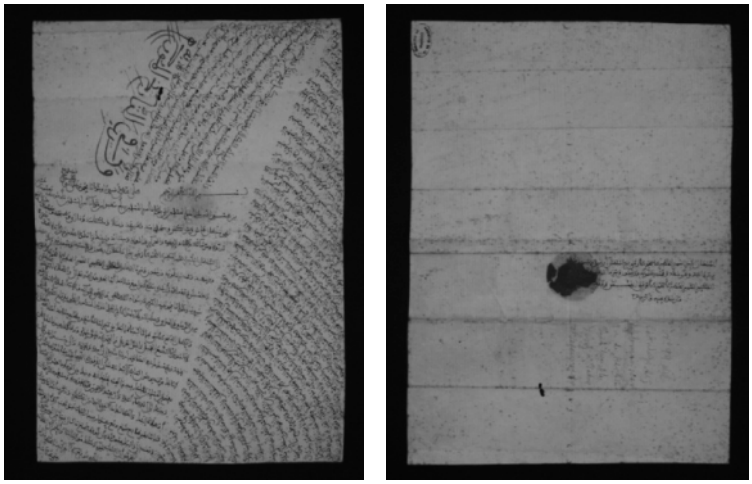

**الظهر** **الوجه**

شكل 23: صورة النص الأصلي للرسالة موضوع التشكيك في صحتها، وتبدو العلامة المعنية واضحة في آخر المكتوب أعلاه، أما طابع الشمع الأحمر الخاص بالسد فجزء منه لا يزال موجودا على ظهر هذه الرسالة كما هو واضح حيث تظهر آثاره أيضا على وجهها.[1]

---

حرج وعصيب . لمعرفة تفاصيل أوسع حول هذه الحيثيات اقترح مراجعة، ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، 375-380؛ القبلي، **المجتمع**، 182-190.

وفي نفس الموضوع أورد الأديب والمؤرخ المشرقي صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الذي عاصر فترة حكم السلطان أبي الحسن المريني رسالة من هذا الأخير إلى سلطان مصر أبو الفداء إسماعيل بن الناصر قلاوون، وهي مؤرخة في سنة 745هـ وكتبها عنه كاتبه أبو عبد الله بن أبي مدين، وفي آخر الرسالة نص علامته: «وكتب في التاريخ المؤرخ به.» ثم أشار إلى أن هذه العلامة هي صورة خط أبي الحسن المريني صاحب فاس، وهو تأكيد له قيمته الإشهادية من أديب وكاتب مارس عددا من الوظائف السامية في ديوان الإنشاء لدى ملوك المماليك بالقاهرة، وهو الذي كتب بخطه ومن إنشائه كتابا جوابيا عن رسالة أبي الحسن السابقة باسم صاحب مصر .انظر كتابه الموسوم بـ: **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق جماعي (دمشق: دار الفكر، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط. 1، 1998 ،ج. 3، 388-398. وقد نقل أبو العباس احمد المقري نفس الرسالة مع نفس العلامة في آخرها، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج. 4، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968)، 386-394.

(1) تُعد هذه الرسالة من بين الرسائل المرينية النادرة التي بقيت محافظة على شكل الطابع المريني ولونه الأحمر، وهو على شكل دائرة كتب في داخلها اسم السلطان الذي اندثرت بعض حروفه بسبب زوال أجزاء من الشمع.

**جدول 3: أشكال وصيغ العلامات السلطانية عند ملوك بني مرين**

| العلامة الأصلية | الكلمات المكونة لها | ملاحظات |
|---|---|---|
| 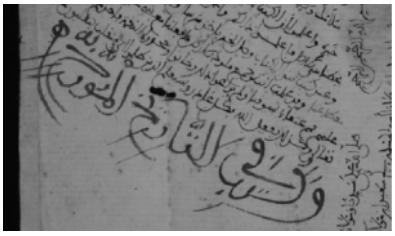 | وكُتب في التاريخ المُؤَرَّخ بِه | -تُكتب هذه العلامة بخط يد السلطان المريني في نهاية المكتوب، وهي في هذه الصورة الأصلية بخط يد السلطان أبي الحسن علي.<br>- يظهر في آخر العلامة حرف الهاء (انتهى). |
| 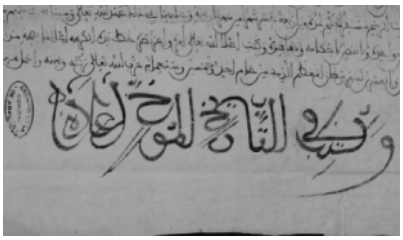 | وكُتب في التاريخ المُؤَرَّخ أعْلاه | -انفرد بكتابة هذه العلامة السلطان أبو عنان فارس بخط يده في نهاية المكتوب.<br>-يظهر في آخر العلامة حرف الهاء(انتهى). |
| 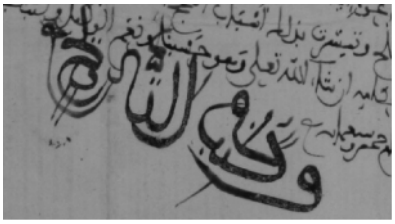 | وكُتب في التاريخ | -تكتب هذه العلامة بخط يد صاحب العلامة نيابة عن السلطان المريني.<br>-يظهر حرف الهاء في آخر نص العلامة (انتهى). |
| 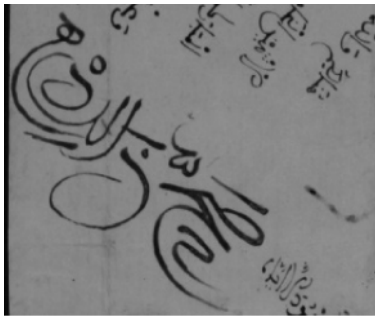 | صَحَّ ذلك | -تنسب هذه العلامة إلى الأمير المريني، وتكتب في حالتين: إما بخط يد الأمير أو بخط يد صاحب العلامة نيابة عن الأمير في نهاية المكتوب، وهي هنا في الصورة الأصلية للأمير أبي الحسن علي عندما كان وليا لعهد أبيه السلطان أبي سعيد عثمان.<br>-يظهر حرف الهاء في آخر نص العلامة(انتهى). |